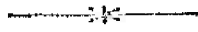


القسم الاول



تاريخ لبنان السياسي

منذ الفينيقيين الى السنة الستين

ابواب القسم الاول

الباب الاول :	لبنان الفينيقي
» الثاني :	لبنان على عهد الرومان
» الثالث :	» » المردة والعرب
» الرابع :	» » الصليبيين
» الخامس :	» » المعنيين
» السادس :	» » الشهابيين
» السابع :	» » القائم مقاميتين

الباب الاول

لبناه الفينيقي^١

لكل امةٍ ولعٌ بالرجوع الى اصولها والافتخار بأنسابها
استقاء لحاضرها من منهل ماضيها : فايطاليا تعزّز أنها وريثة
رومة العظمى وما فيها من همة وعلم ومجد .. ويفتخر اليونان
أنهم سلاله اولئك الاقطاب من رجال الهلادة وشعرائها
وفلاسفتها امثال بريكليس وصوفوكل وستقراط .. والعالم
المتمدن يُقرُّ ايطاليا واليونان على نفارهم ويحترم في الاحقاد
عظمة الجدود حتى ان اوربا ساعدت ايطاليا واليونان على
نيل الاستقلال استعادةً لذلك المجد واقراراً بذلك الفضل ..
فاذا فاخر شعبٌ باصوله واستمد الفضل من كريم
أنسابه فأحرر بلبنان ان يذكر ويُذكر انه مهد الحضارة في

١ راجع : مسبرو تاريخ شعوب الشرق القديم
الدبس : (سيادة المطران يوسف) تاريخ سوريا ج ١

العالم : وَلَئِن كَانَ عَلَىٰ سَفُوْحِهِ وَابْنَعْتَ عَلَىٰ شَوَاطِئِهِ وَمِنْهَا حَمَلُهَا
« الفينيقيون » الى اقاصي المسكونة

ولئن كان على اوروبا واجب لايطاليا واليونان فعلیها
أجلُ منه لبلاد هي معلمة روما وام اليونانية



كانت « فينيقيا » القديمة قائمة حيث يمتد اليوم لبنان
بحدوده الطبيعية على وجه التقريب : من عكا جنوباً الى
ارواد شمالاً

انت فينيقيا هي التي علمت الامم ومدنت الشعوب وما
اليونان والرومان الا عيال علیها علماً وادباً

فالفيينيقيون اخترعوا الكتابة والملاحة وكثيراً من
الصناعات الفاخرة وراودوا العالم للتجارة بحراً وبراً .. ولقد
عرف العلم الحديث فضلهم فوفاهم حقهم من الثناء وعرفان
الجميل :

اخترع الفينيقيون الكتابة فوضعوا لفتحهم ٢٢ حرفاً هجائياً تمكنوا ان يكتبوا بها ماشاءوا وعندهم اخذت سائر اللغات حروفها حتى ان العلماء لم يجدوا حتى اليوم حروف هجاء سابقة لحروف الفينيقيين . وكان اختراعهم هذا قبل عصر موسى

وهم اخترعوا الملاحة وذلّلوا البحر لمقذافهم وفي ذلك يقول مسبرو: « بينا بعض من امرء البحر الفينيقيين يجرون الى اكتشاف البون توكسون Pont-Euxin (البحر الاسود) كان البعض الآخر يسير الى اكرت ويكتشف اراضيها » وقد مدّوا تجارتهم في سائر انحاء المعمور شرقاً وغرباً ولهم يعود الفضل باختراع كثير من الصناعات منها البرفير أي الارجوان وكان يستعمله ملوك اشور وآرام وبابل وفارس ومدين في ملابسهم كما جاء في نبؤات حزقيال وارميا ودانيال . ومنها اختراعهم للزجاج الشفاف وفي متاحف اوربا كثير من مصنوعات الفينيقيين الزجاجية وهي تشهد

لهم بطول الباع والمهارة بهذه الصناعة

وكان لهم السبق ايضاً في صنع الآنية الخزفية وكانوا
يشحنون منها الشيء الكثير مثل الجرار والقدر والكؤوس
والصحاف فتوزع في الاقطار حتى على شواطئ الاتلنتيك
وجزر بريطانيا

وكان لهم مهارة خاصة في ما يعمل من المتاع بالنحاس
الاصفر من آنية وزينة وقد ذكرت لهم ذلك التوراة فأرسل
سليمان يطلب من حيرام عمالاً منهم لنقش الهيكل قال :
« فالآن أرسل لي رجلاً حاذقاً يعمل الذهب والفضة والنحاس
والحديد والقرمز والسمنجوني ما هراً في النقش مع الحذاق
الذين عندي في يهوذا وفي ارشليم الذين أعدّهم داود أبي »
وكان الفينيقيون ذوي همّة بعيدة حملتهم الى مختلف
الامصار وشاسع الاقطار فاستعمروا ماشأوا من الارض
شرقاً وغرباً وابقوا في كل بلد نزله آثاراً عنهم حتى اليوم

وقد ذكر العلماء اخصهم مسبرو شيئاً كثيراً عن احوال
الفينيقيين ومستعمراتهم يُلخص فيما يأتي :

ركب الفينيقيون البحر من عرقا وجبيل وارواد وبيروت
والخامه وصيدا وصور فقذفت بهم مطامخُ نفس شماء الى بحر
ايجه والارخبيل فنزلوا جزر سبوراد وسيكلاد وديلوس « حيث
وَلدت ديانا وابولون » وساموترا « حيث اسرار الهة كبير »^١
ثم جازوا الجزر الى « الالسيون » او مضيق الدردنيل واحتلوا
فيه مدناً حصنها كالميساك ثم ساروا الى اليوسفور والبحر
الاسود ومنه الى جبل قاف حيث اخذوا المعادن الثمينة
اخصها الذهب وسيروا سفنهم الغازية على شطوط « الايير »
او البانيا ورادوا ايطاليا وصقلية ولم تعصَ عليهم افريقيا فنزلوا
مصر واقاموا فيها لهم مستودعات اخصها ممفيس ثم ساروا الى
تونس حيث بنوا مدينة كُباه وحيث بنت اليسار الفينيقية
مدينة قرطاجة سنة ٨٦٠ ق. م.

ولم يكتفوا بتذليل البحر بل رادوا البر فساروا الى بلاد

العرب والسككدان وارمينيا وطرقوا كل طرق التجارة في
الشرق الاقصى كالهند وتركستان .

وسار منهم بعض الى اسبانيا فعمروا « قادس » وبنوا
« ملاكا » « وسكس » وابدار ومدوا فرووعهم الى سفح جبال
« البيرينه » . وهكذا ضرب الفينيقيون في مشارق الارض
ومغاربها فلم تقف بهم الهمة حتى مدوا تجارتهم في كل انحاء
العالم المعروف يومئذٍ وقد ابقوا في كل تلك الاصقاع آثاراً
عنهم حتى اليوم تروي للخلف عن توقد ذكائهم ومضاء
عزيمتهم وكال رقيتهم .

وقد اثبت علماء اليوم ان مهد الحضارة والعلوم والمعارف
هو فينيقيا ، لا اليونان ، وان فينيقيا احق بتلك الكرامة الجلى
التي لليونانية في العالم غير متنقصين فضل اليونانية في شيء .

فقد كتب المسيو بوجولا في « مراسلات الشرق » ما ملخصه :

« قد يمكن ان يكون الفينيقيون اخذوا عن الهنود والفرس
والبابليين بعض المعارف الاولى وبعض التقليدات النافعة لكن ما لم

يُخترعوه قد كانوا قد أخذوا شرارة فصيروا منها شمساً والحق يقال
ان هذا الشعب جاد علينا بأكثر المنافع . فمصر القديمة جعلت حكمتها
وعلاومها اسراراً فكانت تحجب مصباحها لئلا ينبعث نوره لأرض
سواها واما فينيقية فلم تكن لتألو جهداً في تسطيع انوار معارفها في
كل صوب فتراءى لي مصر في اعصرها الحالية بهيئة كاهن لا ينطق
بشيء بل يخفي نوره المقدس في اعرق خفايا هيكله واما فينيقيا فأراها
بهيئة اولئك الآلهة القدماء الذين كانوا يقولون على رؤوسهم منارة في
وسط البحور . وأخص ما يحق لقبنيقيا الفخار به اختراع الملاحة
واختراع الكتابة .

وللمسيو ليرمان في مثل ذلك قوله :

« ولدت الحضارة في مصر واشور ولكن كان الفينيقيون دُعائها
ورسلها فلا تجد بلداً من جزر اليونان حتى بوغاز جبل طارق الا
وأيت فيه آثار تعليمهم وما كان لاسفارهم فيه من بث مبادي التمدن .
فقد جعل نفوذهم ونشاطهم بلاد اليونان وايطاليا وفرنسا واسبانيا
تغادر حالتها الاولى البربرية وتصبح اسيوية الى ان أحرزت بنفسها
النجاح الذي رقاها الفينيقيون اول درجاته . »^١

والمسيو جان يانوسكي في كتابه « سوريا القديمة »
ما ترجمته ملاحظاً :

« ان الفينيقيين كانوا محوري التجارة ومستودع خيرات العالم ومثمناته
من الهند والصين وسياريا الى شواطئ بحر قزوين واسيا الوسطى
وبلاد العربية . ولم تبعد على همة بحارتهم الأباسل بجاهل افريقيا
وشواطئ اسبانيا وبلاد الغالة (فرنسا) وإيطاليا واليونان .
ولم يكن على سطح البحر المتوسط مزاحم للفينيقيين فبلغوا ما
بلغوا من القوة والعظمة حتى انه لم يكن سبيل للاتصال بين اسيا
واوربا وافريقيا الا بواسطة سفنهم . »^١

والمسيو جبريال شارم في « رحلته الى سوريا » ما
حكايته

« ان الفضل في ايجاد تلك الثورة الادبية التي غيرت وجه العالم
فاقامت ، على اطلال ذلك التمدن الحثير الذي كان مبنياً في الشرق
على قواعد الانانية ومبادئ الاوتوقراطية والروح العسكرية ، تمدناً
آخر اجل واسمى فاتحاً باب الرقي على مصراعيه للتجارة العامة
وللمبادئ الحرة ، انما مرجعه الى فينيقيا . فهي صاحبة الفضل بايجاد

١ جان يانوسكي : تاريخ سوريا القديمة ف ٥ ص ١٠٦ ومايلها

هذا التمدد الرحب الذي منه تكون الغرب الحالي.

ذلك هو الفضل الأكبر الذي لفينيقيا على العالم وقد جهل العالم فضلها ودحاً من الدهر وهو ما يجعل لتلك الأمة الكريمة المنقام الأول بين الشعوب التي كان لها تأثير قاطع في تكييف الهيئة الاجتماعية أنها لم تبتزع المدهشات مثل غيرها من سابقات الأمم إنما هي أوحى لمن مبادئ الاختراع وقواعد الاستنباط : فما لم تمله هي عمله غيرها بفضل أنوارها وبواسطة تعاليمها وقد لا يكون أضاء مصباح اليونانية لولا شعلة تلك الأنوار والتعاليم .

إن ذلك الشعب الذي ظلّ فضله مجهولاً دهرًا طويلاً ثم ظهر أخيراً للعالم الحديث فلاً تاريخه على قصره ما كان من انقراع الغريب بين الشرق القديم والغرب الحديث ، إن هو إلا تلك الأمة الصغيرة الفينيقية التي يرجع إليها الفضل وينتهي الشرف في أنها كانت همزة الوصل بين ذينك العالمين .

وينما هي تمتدّ من الجنوب الى جبل الكرمل ويحفظها من جهة الغرب البحر المتوسط ، كان لبنان من جهة الشرق ، يدفع عنها غزوات الفاتحين الأجانب ، تجلّ قمم أحراج من « الارز » واسعة الاطراف . وقد ملك الفينيقيون كل السبل التي كانت بين الهند وبلاد الكلدان والعربية وبلاد القوقاس وبين الغرب .

ولما نزلوا في بلاد اليونان وجدوهم وهم اقرب الى العصابات المتوحشة

منهم الى الشعوب المتقدمة فعلموهم اللغات والصناعة والكتابة والزراعة
وفنّ الحساب وقد تعرّف اليونانُ على يدهم الى كثير من الاختراعات
التي نشأت في الشرق ثم هذبها وحسنها ذكاء الفينيقيين بل نبوغهم في
وضع الاختراع قيد الاستعمال . وقد اخذ اليونان عن الفينيقيين
كل الكلمات الدالة على تلك الاختراعات والحاجيات .

وخلاصة القول ان اليونان مديونون بحضارتهم للفينيقيين وان ما
للك الحضارة والعلوم من فضلٍ على البشرية يرجع اصله الى فينيقيا
لان اليونان ما كانوا الا تلاميذاً لهم .^١ »

وقد كتب المسيو ارنست كورسيوس في تاريخه عن
اليونان فصلاً شائقاً عن تفوق الفينيقيين وعن اخذ اليونان
عنهم جاء فيه

« لا يُنكر على اليونان انهم توصلوا الى اخذ الحضارة عن شعب
أرقى منهم (يريد الفينيقيين) وانهم تمكنوا بذلك ان يسرقوا منه
سرّ تفوقه .^٢ »

وقد كانت جبال لبنان في ذلك العهد معقلَ فينيقيا
الساحلية وحصنها الحصين فقد صان لبنان فينيقيا وحي

١ جبريال شارب : « رحلة الى سوريا » ص ٦٩ وما يليها

٢ ارنست كورسيوس : « تاريخ اليونان » ج ١ ص ٤٩

استقلالها فكان له فضل كبير في ما بلغت اليه من
الجاء والعظمة

من اجل ذلك تجسم عز فينيقيا وامجادها في لبنان
وكان « العناية » اختارته من قديم الدهر ليكون في الشرق
ملجأ أميناً للنصرانية وموطئاً حصيناً للفازعين اليه فأنشدت
مجدّه الكتب وقدّست أرزّه اناشيد الانبياء حتى باتت للبنان
كرامة القدسيات ولارزه حرمة الاسرار يدلك على ما بلغه
من المقام والاجلال ان « الكنيسة » حين شاءت ان
تخصر آي المجد في السيدة المذراء لم تجد تعبيراً أوفى من
تخصيصها بالآية « قد اوتيت مجد لبنان »^١

ولئن انحصرت امجاد فينيقيا في لبنان فقد تجسمت
امجاد لبنان في ارزه الخالد فاطل من شاهق تلك القمم
على الاجيال تتابع والقرون تتخالف، فقامت على اقدامه دول
واندثرت دول : فرأى الاشوريين والكلدان والفرس
واليونان والرومان يتطاحنون ويتفانون وهو يشرف على

السهل من عالي بواسقه اشراف النسر من شاهق وكره
لا تصل الى سمعه صاصلة السيوف ولا تنال من شماء عزته
شرّة الفاتحين .

نظرت ملوك التوراة وشعراؤها الى جلال لبنان وجماله
فراع جلاله الملوك وهاج جماله الشعراء فخصوا لبنان
وارزوه بآيات ساحرات خلدت ذينك الجلال والجمال دلاً
على الملوك واعجازاً للشعراء

« قال الحكيم في معجزه » نشيد الاناشيد :

« الملك سليمان صنع لنفسه تختاً من خشب لبنان »

« هلمي معي من لبنان ايتها العروس ، معي من لبنان »

انظري من راس امانة من راس سفير وحرمون من حرابض
الاسود من جبال النمر »

« عين جنات وبئر مياه حية وانهار من لبنان »

« غنقك كبرج من العاج وعيناك كبركتي حشبون عند

باب بنت الجماعة وأنفك كبرج لبنان الناظر الى دمشق »

« ان كانت سورياً بنينا عليه صرحاً من فضة وان كانت

مصرعاً شددناه بألواحٍ من أرز^١

وقال الملك داود « في مزاميره »:

« الصديق كالنخل يزهر ومثل ارز لبنان ينهي »

« تروى اشجار الرب ارز لبنان الذي غرسها »

« هناك تعشش العصافير وللقملق بيت في السرو »

« سبحي الرب من الارض ايتها السانين وجميع الغمار

الجبال وجميع التلال . الشجر المثمر وجميع الارز »

وقال اشعيا: « قد قرعت الرب على لسان عبيدك

وقلت بكثرة مراكي صعدت الى قم الجبال واواخر لبنان

قاطعاً ارفع ارزه وخيار سروه وبالغا الى علائها الاقصى والى

غابة كرملة »

وقال هوشع: « واكون لاسرائيل كالندى فيزهر »

١ نشيد الاناشيد ف ٣ عد ٩ وف ٤ عد ٨ و ١٥ وف ٧ ع ٤

وف ٨ ع ٩

مزامير داود: ف ٩١ عد ١٣ وف ١٠٣ عد ١٦ و ١٧ وف ١٤٨

عد ٧ و ٩

نبوءة اشعيا: ف ٣٧ عد ٢٤

سفر هوشع: ف ١٤ عد ٦ و ٧ و ٨

كالسوسن ويمد عروقه كلبان وتنتشر فروعها ويكون بهاؤه كالزيتون ورأسه كلبان فيرجع الساكنون في ظله ويحيون بالخطوة ويزهرون كالكرم ويكون ذكره كخمر لبنان «
وقد وصف حزقيال^١ ارز لبنان بما يملأ النفس مهزة قال : « هوذا اشور ارزة بلبنان بهيجة الافنان غيباء الظل شامخة القوام وقد كانت ناصيتها بارزة بين اغصان ملتفة . المياه عظمتها والغمر رفعها . امهارها جرت من حول مفرسها ومجاورها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء . فلذلك عند نشأتها ارتفع قوامها فوق جميع اشجار الصحراء وكثرت اغصانها وامتدت فروعها من كثرة المياه . في اغصانها عشتت جميع طيور السماء وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء وفي ظلها سكنت جميع الامم الكثيرة »^١

وقد عظم شأن فينيقيا واتسعت املاكها فكانت عظمتها واتساعها سبباً في تقهرها وسقوطها : سنة الطبيعة في الممالك

والدول فهكذا تفهقرت اليونان وهكذا سقطت روما
ولتلك الاسباب نفسها تضاءلت الدولة العثمانية بعد ان
مدّت فروعها في اسيا واوربا وافريقيا :

ففي الجيل التاسع ق. م. دخل « الاشوريون » فينيقيا
وافتخروا بجلبت فلاصر أنه اخذ من خشب الارز واعتز نمرود
انه « أخذ نواحي جبل لبنان وذهب نحو بحر فينيقيا الكبير
وترنم على اعالي الجبال بتسايح الالهة العظام »^١

+

وفي ذلك العهد جلبت جماعة من الفينيقيين صحبة
« اليسار » بنت الملك فركبوا البحر الى سواحل تونس حيث نزلوا
حوالي سنة ٨٦٠ ق. م. وبنوا مدينة سميتها اليسار « قرية
حديثا » وهي عند العرب « قرطاجة » تلك التي قدر لها ان
تصبح فيما بعد ضرة لرومه ومزاحمة لها على مجدها فتصطلي معها
في حروب مشهورة باسم « الحروب البونية » اي الفينيقية
وفيهما كاد « انيبال القرطاجني الفينيقي الاصل » يظفر باكاليل

النصر و يقيم معالم قرطاجة على اطلال روما لولا أن خانة
الجد في آخر امره على ما هو مشهور في تاريخ روما
وقرطاجة .^١

✱

وبعد ملوك اشور آتى الكلدان والفرس في الجيل السادس
ق . م . فظل اللبنانيون يناصبونهم القتال ذوداً عن حريتهم
كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً .^٢

✱

وفي منتصف القرن الرابع سنة ٣٥٦ ق . م . ظهر في
سما مقدونيا نجم ذلك الفاتح الاكبر فبعث انواره الساطعة
في افلاك الممالك شرقاً وغرباً فحسفت لطلعته نيراتها وهوت
تلك الاجرام من ابراجها فنال ذو القرنين من بسطة
السلطان وسطوة الملك مالم ينله فاتح قبله فاستظلت فينيقيا
افياء فيما أظلت من المدن والبلدان .

—————

١ بنيت قرطاجة بالقرب من تونس وقد بلغت خشية الرومانيين من شوكتها
وعظمتها ان احدهم «كاتون القديم» جعل لكل خطبة لازمة كان يرددها
دائماً : « واني افكر من جهة اخرى انه لا بد عن سحق قرطاجة »
٢ مسبرو تاريخ شعوب الشرق القديم ص ٢٣٨

الباب الثاني

لبنان على عهد الرومان

لم تدفع شوكة الاسكندر وبطشه يد الموت عن مهاده
الملكى فتقلص ظله الوارف وقضى تاركاً ذلك الملك الواسع
لخلفاء ناءت مناكبهم تحت اعبائه فلم يبلغ « الفاتح الرومانى »
فينيقيا الا وشوكة اليونان قد خضدت فيها فشر عليها
« بومبياس » القائد راية روما سنة ٦٤ ق. م. فقدر لها ان
تظل خافقة في سماءها الى غرة القرن السابع
لم ينكر الرومان على فينيقيا فضلها ولم يحكموا في لبنان
حكم الظافر المكتسح بل قدروا ذلك الشعب الاثيل قدره

١ بوشيد : « سوريا على عهد الرومان »

جاستون ماي : مبادئ القانون الرومانى

واحترموا مكانته وقد اثبتوا احترامهم له بمظاهر عديدة وشواهد ناطقة ، منها ان الكثيرين من الامبراطرة الرومانيين احسنوا المجاملة لفينيقياً فسكنوا مدن لبنان واهتموا بتخليد ذكرهم فيه فبنوا المدن الجميلة وغالوا في اتقانها فان الامبراطور « ادریان » زار لبنان في القرن الثاني وسكن مدة في جبيل . وشاد « اغسطس قيصر » مدينة بيروت واطلق عليها تيمناً اسم ابنته فدعاها « يوليا السعيدة » وخول اهلها حقوق الرومانيين . وقد انجب لبنان الفينيقي كتاباً وعلماء كانوا موضوع اعجاب العالم الروماني واجلاله :

منهم « فيلون الجبيلي » ولد في جبيل ، حوالي سنة ٧٠ للمسيح وعاصر الامبراطور ادریان في القرن الثاني ، وله مؤلفات عديدة في مواضيع مختلفة منها تاريخ الامبراطور ادریان وتاريخ فينيقياً ومجموعة عن المدن الكبرى والرجال العظام الذين خرجوا منها . وما بقي من تلك المؤلفات يشهد لصاحبها بالعلم والبلاغة .

واكبر علماء نجبوا في القانون بين الرومان كانوا من

الفينيقيين انحصهم « اوليان » القانوني وهو من ضواحي صور ولد حوالي سنة ١٧٠ للمسيح وكان استاذاً للحقوق في كلية بيروت ثم أصبح مستشاراً خاصاً للامبراطور الكسندر سافروس

وقد فاق الجميع علماً وادباً « باينيان » القانوني الطائر الصيت وهو من واضعي القوانين الرومانية التي عنها أخذ العالم بأسره وقد كان هو ايضاً استاذاً للحقوق في كلية بيروت ثم مستشاراً خاصاً وصديقاً حميماً للامبراطور سبتيموس سافروس . وقد بلغت منزلته بين علماء الرومان ان شرعة سنة ٢٦٤ قضت بانه اذا تساوت آراء العلماء في معضلة قانونية يرجع الى رأي « باينيان » فيكون فصل الخطاب

وامثال اولئك الاقطاب كثيرون مثل « برفير الصوري » و « لوسيانوس السميساطي » و « يوليوس بولس » ممن كان يشار اليهم بالبنان بين علماء الرومان

وقد بلغ من احترام الرومان لفينيقيان ذلك الشعب الجبار الذي دوخ العالم وساد الشعوب لم يستنكف من ان

يجلس على عرش روما امبراطرة من اصل فينيقي فكان منه
« سبتيموس سافروس » وقد ملك من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١
« وسبتيموس جيتا » واخوه « كاراكلا » : ملك الاخوان
سوية من سنة ٢١١ الى سنة ٢١٢ ثم ملك كاراكلا وحده الى
سنة ٢١٧

« واليوجيل » او « اله الجبل نسبة الى جبل لبنان »
وقد ملك من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٢٢

« والكسندر سافروس » ملك من سنة ٢٢٢ الى سنة ٢٣٥
ومن المعروف في تاريخ روما ان عصرها الذهبي
وتفوقها الادبي كان على عهد الامبراطورين من آل سافروس
سبتيموس والكسندر ، فقد اتخذوا لهما مستشارين واخصاء من
مواطنيهم الفينيقيين امثال باينيان واولييان ويوليوس بولس
فكانوا كالهالة الوضاعة احاطوا بالعرش الروماني فانبعثت من
الى العالم انوار العلوم والمعارف والقوانين الاجتماعية مما
يسبق له مثيل في التاريخ . ومن مآثر ذلك العصر الذهبي

وضع الشرائع المدنية وتخفيف الضرائب عن عاتق الاهلين
ومحسين حال الجندي وانشاء المصارف واقامتها على قواعد
تمكنها من تسليف المال بفائدة قليلة

وقد كان الامبراطور الكسندر سافروس على جانب
عظيم من دعة الاخلاق وسمو المبادئ فنبذ عادات الفخفة
في البلاط الامبراطوري وله في ذلك قوله الماثور: « ان
عظمة الامبراطورية تقوم على الاخلاق لا بالفخفة والاهبة
الظاهرة »

وقد أوصل أولئك الامبراطرة الى مقام يحسر دونه
الطرف عزمهم اشم وهممة قعساء وثقة بالنفس لا تهى : فيها
امثلة وعبر للمتأخرين ...

وان شعباً ينبج امثال أولئك العلماء ويدفع الاقدام
ابناءه الى تبوء عرش القياصرة لتحقيق بان يحفظ التاريخ
حرمته ويحترم العالم كرامته على كرور الازمان

وقيح بالاحفاد وان قدم العهد ان يتطرق القنوط
الى قلوبهم ويستولي اليأس على همهم فيفقدوا ثقتهم بانفسهم

وبأمتهم : فان افطم ما يمنى به شعب فقد الثقة بنفسه ،
وهم لو شاؤوا لنهض بهم الجدد ومشوا الى حيث يعجز عن
اللاحاق بهم ابناء الأمم الأخرى

✱

ولم تفارق اللبنانيين ، على عهد الدولة الرومانية ، همّة
اجدادهم الفينيقيين بل رادوا الاقطار كما رادها آباؤهم فحمل
اهل بيروت وجبيل وصور الى العالم مصنوعاتهم ومحصولاتهم
كالانسجة الحريرية والفراء والطيوب والبهار وانشأت نزالاتهم
المحلات التجارية في المدن التي نزلتها فكان للصوريين
والبيروتيين محال في اعظم فرض ايطاليا لاسيما « اوستيا »
« وبوزولي » من اعمال نابولي وفي « سالونا » بدلماسيا
وفي « اسكولي » على الادرياتيک وفي « ملاكا » من
اعمال اسبانيا وفي جرمانيا وفرنسا لاسيما في « بوردو »
« وليون » « وباريس » « واورليان »

وقد كثرت الجاليات الفينيقية اللبنانية في بعض
تلك المدن حتى اصبح لهم فيها شأن سام مكنهم من

تشيد المقامات الدينية لاقامة شعائرهم فيها ، فقد اثبتت مجموعة
الخطوط اللاتينية ان جالية بيروتية اقامت في « بوزولي » نصبا
للمشتري الاعظم البيروتي .

وروى القديس غريغوريوس اسقف طور^١ انه لما أتى
الملك جونتران بن كلوتر الاول الى مدينة اورليان خرج
الشعب للملاقاته وكانوا يجأرون بالدعاء له بالعبرانية والسريانية
واللاتينية . واثبتت مجموعة الخطوط اللاتينية من الخطوط
التي عُثر عليها في مقبرة مدينة كونكورديا^٢ في
ايطاليا الشمالية ان الاجانب المدفونين هناك جميعهم
سوريون^٢

وقد كانت النصرانية في لبنان على عهد الرومان
تتقلب بين الاعزاز والاضطهاد فطوراً يحميها ملوكهم فيشتد
ازرها وطوراً يناصرونها العداء فيقوى ساعد الوثنية عليها :

١ غريغوريوس اسقف طور ولد سنة ٥٣٨ وتوفي سنة ٥٩٤ وكتب
تاريخ الفرنجة . وجونتران هو ابن كلوتر بن كلوفيس ولد سنة ٥٢٥ وتوفي
سنة ٥٩٣

فلما جلس « قسطنطين الكبير » على عرش الاستانة
أذاع في سنتي ٣١٤ و ٣٢٤ أمرين أباح فيهما
لنصارى مباشرة دينهم واقامة شعائرهم على ما يشتهون
فرسخت اذ ذاك قدم المسيحية في لبنان ثم ما لبثت ان
ذلت على عهد « يوليانس الجاحد » ثم عادت فاعتزت على
عهد « تاودوسيوس الكبير »

وما زالت بين ارتفاع واتضاع حتى قُدر لها ، على ما
اثبتته العلماء ، ان تضطرب فيه نهائياً على جيوش الاوثان
في القرن السادس « بفضل الشعب الماروني »^١ فأصبح
لبنان منذ ذلك العهد موئلاً للنصرانية في سوريا



يمزج العلماء معظم تاريخ لبنان بتاريخ الموارنة من
الجيل السادس الى الجيل السادس عشر . والذي يهمننا من

١ الاب لامنس : تزيح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ج ٢

تاريخ الموارنة في هذا البحث استقراء تاريخ لبنان فاذا جرى ذكر الموارنة فمن حيث انهم لبنانيون فقط :

نشأت المارونية في اوائل الجيل الخامس في شمال سوريا في البلاد الواقعة بين انطاكية وقورش حيث تصدى «القديس مارون» لمحاربة الاوثان فقام يدعو الناس الى الدين المسيحي فذاع صيته فضائله وراسله القديس «يوحنا فم الذهب» واهتدى على يده كثيرون الى النصرانية ولم يقض القديس مارون نجه الا وله تلاميذ عديدون خلفوه في الدعوة والتبشير فتبعهم جمهور غفير اطلق عليهم لقب «الموارنة» وقد اخذ الموارنة يهاجرون من وادي العاصي الى لبنان فسكنوا اولاً جهاته الشمالية حيث انضم اليهم اللبنانيون المقيمون في تلك النواحي وامتزجوا بهم فاصبحوا جميعاً شعباً واحداً لم يقتصر نموه على جهات الشمال من لبنان بل تعداها الى اواسطه ثم الى جنوبه .

١ الدبس : تاريخ سوريا ج ٥
الدوميني : (البطريك اسطفان) : تاريخ الطائفة المارونية ص ١٧ ومايلها

وما زالوا على نموّ وازدياد واستقواء حتى تقلص ظلُّ
الوثنية من لبنان على يدهم فاصبح اللبنانيون والحالة هذه
شعباً مسيحياً واحداً تجمعهم وحدة الدين وتشدُّ أواصرهم
رابطة المصلحة المشتركة

ولم يلبث ان شعر ذلك الشعب في بدء أمره انه قبل
كل شي « عنصرٌ مسيحي » امتزجت وطنيته بدينه واندغمت
قوميته بمذهبه « ساعده على سلوك هذه السبيل والاسترسال
فيه التفاف جيرانه من اليعاقبة اولاً والمسلمين بعدهم حول
العنصرية الدينية وانضواؤهم تحت لواء العنصرية المذهبية فكان
من ثمَّ بين الفريقين مناوءات وعداوات افضت باللبنانيين الى
التحصن في جبالهم والاعتصام بمعاقلهم ذائدين عن دينهم
واستقلالهم منعاً للاجنبي من التدخل في امورهم والقضاء
عليهم

وقد ظلت « العنصرية المسيحية » رائد اللبنانيين في
وطنيتهم دهرأ طويلاً فقامت سداً منيعاً في وجه الفاتحين
الذين تغلبوا في سوريا فهي التي حمّت لبنان وصانت حرّيته

واستقلاله منذ الجيل السابع حتى الفتح التركي في الجيل
السادس عشر وفيه ظهرت تباشير « القومية اللبنانية » التي
حالت محلّ العنصرية المسيحية

وأول مرة أتيح فيها للبنانيين ان يثبتوا الهلأ
قوة عنصريتهم وبأس رجالهم كانت يومَ ردوا تيار الغزاة
من العرب عن جبالهم فظلّ ثابتاً عزيز الجوانب بينما اركانُ
المملكة الرومانية تنهار حواليه ويولي هرقلُ الادبار امام
جيوش المسلمين.



الباب الثالث

لبناه على عهد المردة والعرب

في مستهل القرن السابع للمسيح أطلق من الحجاز
جواده عربي صميم فاجتاح الحجاز والجزيرة ولم يقف به
خالد بن الوليد وعبيدة بن الجراح الا وقد ساقا امامهما
خيل الروم حتى اليرموك وحمص وحماه وقنسرين فدوخا
الاقطار الشامية ولم يلبث ان أنفذ عمر بن الخطاب الى
مصر وفارس غزاته فاتحين.

ولم يكد يستقر الامر لمعاوية في الشام حتى طمح
بابصاره الى القسطنطينية وريثة أمجاد الرومان وعنوان
عظمتهم بعد روما، فسير عليها في سنة ٤٨ هجرية جيشاً

كثيفاً مع سفيان بن عوف ففشى العرب من فتح الى فتح حتى بلغوا أبواب القسطنطينية وضربوا عليها حصاراً محكماً، وكان في ذلك الجيش خيرة قواد العرب كابن عباس وعمر بن الزبير وابي ايوب الانصاري

وقد اجمع المؤرخون الذين كتبوا حوادث تلك الايام ان من اكبر العوامل في خيبة معاوية ورجوعه عن فتح عاصمة الروم ، غاية مجهوداته ومنتهى آماله ، كان خروج اللبنانيين عليه في سوريا . وبيان ذلك ان العرب دوخوا الشام ففضعت لهم اقوامها واندغمت فيهم صاغرة الا ان لبنان ظل قائماً في وجههم يتشبث اهلوه بعنصريتهم واستقلالهم ولهم في جبالهم ما يشاوون من القوة والمنعة

فلم يحسن العرب السياسة مع لبنان فبدلاً من ان يحترموا نزعة قومه الى الحرية وتشبثهم بالاستقلال فيستميلوهم اليهم ويحالفوهم على الاجانب دفعهم حب السلطة والتوسع الى مناوأة اللبنانيين كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً . فلم ينم-

اللبنانيون الابل على الأذى ويستسلموا للفأحين بل باتوا
في قمم جبالهم ممتنعين يرقبون الفرص لردّ اطاع الغزاة
عنهم وحملهم على احترام غصريتهم واستقلالهم . فلما
سمعوا بفتوح جيش معاوية وبأنه اخذ يضرب القسطنطينية
وهي تكاد تسقط في يده راعهم الأمر لميلهم للروم ، وهم
نصارى موالون ، ولخوفهم من استفحال شوكة العرب
وهم لم يحترموا حقوق اللبنانيين ولم يراعوا امتيازاتهم . فلما
اشتدت وطأة العرب على الروم ، وعاهلهم يومذاك
قسطنطين اللحياني ، دعا الملك قسطنطين اللبنانيين لنجدة
فللبوه سراعاً وهبطوا من معاقلهم واخذوا يصلون معاوية
حرباً دراكاً وقتالاً مضنكاً حتى أفسدوا عليه خططه فلم
يعدّ بإمكانه التفرغ لمحاصرة القسطنطينية بل اضطرّ الى
الاهتمام بأمر اللبنانيين وردّهم عن المدن والاقطار الشامية
وهي مهد قوته وقاعدة ملكه . فأكره على مفاوضة الملك
بأمر الصلح ووقعه له على ما يوافق مصلحة الروم فتنجت
بذلك « بيزنطية » من فتحٍ قدّر لها وقوعه بعد مضي

ثمانية اجيال على يد محمد الثاني سنة ١٤٥٣

واليك الشواهد التاريخية على ما تقدم :

جاء في تاوفانوس المؤرخ اليوناني عن سنة ٦٦٩ :

« ولما سمع معاوية ومستشاروه (بغزوات المردة) خافوا خوفاً

شديداً حتى أنهم ارسلوا رسالاً الى قسطنطين الملك في

طلب الصلح وفوضوا ان يعرضوا ايضاً الجزية السنوية ...

ومن بعد الاخذ والرد في امر الصلح تم الاتفاق كما يلي :

ان يدفع العرب لخزينة الروم كل سنة ثلاثة آلاف وزنة

من الذهب وثمانية آلاف مملوك وخمسين فرساً كريماً . »

وجاء فيه عن سنة ٦٧٦ : « وبسبب غزوات المردة

في الارحاء التي حول لبنان .. طلب هو نفسه (ابي

عبد الملك) تجديد عهد الصلح التي كانت عقدت على

عهد معاوية فأرسل رسالاً الى الملك في ذلك وتعهد بان

يقدم ٣٦٥ وزنة من الدنانير الذهبية ومثل هذا العدد من

الماليك وقدرراً لا يقل عنه من الخيول الكريمة . »^١

وقد دوّن أيضاً تلك الحوادث المؤرخ اليوناني سدرانوس
حيث جاء ما ترجمته ملخصاً : « وفي السنة الثامنة لقسطنطين
اللحياني بلغ المردة من القوة في لبنان أنهم اوقفوا تقدم
العرب وارغموا الخليفة معاوية على طلب الهدنة من الروم
لثلاثين سنة على ان يدفع العرب جزية قدرها ٥٠ فرساً
كريماً ومئة مملوك وعشرة آلاف ذهباً »^١

وفي ذلك يقول الشدياق : « لما حاصر معاوية قسطنطين
الملك اللحياني في القسطنطينية أرسل الملك قسطنطين
يستنجد بالمردة فأنجدوه وكفوا عنه العرب فاضطر معاوية
ان يعقد الهدنة للملك قسطنطين . »

وقد ذكر الشدياق في تاريخ سنة ٦٩٩ : « ان الملك
طيباريوس أرسل عساكره لغزو الشام ومحاربة العرب الذين
دخلوها فكتب الى الامير سمعان امير جبل لبنان ان ينجده
بالعسكر فاجابه وارسل الجيوش نحوهم الى ان شارفوهم فالتقى
حينئذ العسكران وما زالوا بهم الى ان استظهروا على العرب

فلما بلغ طيباريوس ذلك داخله السرور وخلق على الأمير
سمعان وعظمه^١ »

وقد تبسط في سرد تلك الحوادث المسيو جول دافيد
في تاريخه « سوريا الحديثة » حيث جاء عن مساعدة
البنانيين للروم واضطرارهم معاوية الى تحويل قواته عن
القسطنطينية ما ترجمته ملخصاً : « اما ما اضطر العرب الى
تحويل قواهم عن الروم فقد تمّ على يد امة جديدة كانوا
يسمونهم « الموارنة » . فان ما أبداه رجال تلك الامة من
الجرأة والعناد في القنال وما اظهروه من الدابة والهمة في
خططهم ومن الحكمة في توزيع قواهم كل ذلك استرعى
بال معاوية وما لبث ان راعى الامر حتى اضطر الى
تحويل قواه عن حصار القسطنطينية فلم يتمكن من ارسال
كل جيشه عليها

« فامام هذه الحوادث يتساءل المرء كيف نظم ذلك
الشعب نفسه ؟ بل كيف بلغت منه الهمة والنشاط حداً

مَكَّنْهُ من الوقوف في وجه ذلك الغازي المكتسح يوم كان
القنوط عمَّ سائر مسيحي سوريا ؟ ..

« تلك امور لا يمكننا تبليانها الا اذا رجعنا شيئاً الى
الزمن الغابر .. وعلى كلّ فن الثابت انه كان في نفس
ذلك الشعب منذ القدم روح كبيرة ونزوع قوي الى الحياة
حتى تمكن على ممرّ الاجيال من ردّ اطماع المسلمين عنه
فذاق في جهاده المتواصل حلول الحوادث ومرّها ولكنها لم
يفقد في كل حال حتى يومنا هذا قوميته ودينه وعاداته .
اما اصل عصبه اولئك الابطال التي صارت شعباً فيما بعد
فقد اختلف فيه المؤرخون : فمن قائل انهم هم « المردة » الذين
كان لهم كل مميزات سكان الجبال كالشجاعة وحب
الاستقلال .. وعلى كلّ فسواء كان هذا الشعب من المردة
او كان منذ العصر الاولى من سكان جبال لبنان او كان
مجموعاً من المسيحيين الذين فزعوا الى لبنان على عهد الفتح
الفارسي او الفتح الاسلامي فالحقيقة التي لا جدال فيها هي
ان ذلك الشعب كان قد أصبح في اواخر الجيل السابع

في سوريا على جانب عظيم من القوة وان معاوية اضطر
ان يحسب له حساباً وانه كان يومئذٍ على ما اكده المؤرخ
تاوفانوس قد مدَّ رواق ملكه من جبل طوروس في اقصى
شمال سوريا حتى الجليل حوالي اورشليم المدينة المقدسة .
وبعد ان يذكر المؤلف ما قيل في أصل الموارنة مما
لا دخل له في هذا البحث يأتي على ما فعلوه من الاعمال
الباهرة في سبيل حريتهم واستقلال بلادهم قال :

« كان الموارنة شديدي التعلق باستقلالهم حتى التعشق
كثيري التشبث بدينهم عن اعتقاد حيٍّ ... من اجل
ذلك لم تنهن لهم عزيمة في ردّ حملات العرب عن بلادهم
حتى أنهم في مزاولة الحروب ومداومتها قد ألفوا فنّ القتال
فلم يلبثوا ان أصبحوا جنوداً محنكين ورماة مدربين وفرساناً
أبأسل لم يكتفوا برّد الاجنبي عن بلادهم بل طمحوا الى
توسيع سلطانهم فتبسطوا فيه من جبل طوروس شمالاً الى
الكرمل جنوباً . »

« ومن الحصون التي انشأوها « بسكتنا » في سفح لبنان

الشرقي «والحدث» في وادي النهر الكبير و «بشري» على
منبسط الجبل وقد أصبحت فيما بعد عاصمة الموارنة «
«ولما غزا العرب سوريا راع فتوحهم الجبل في بادي
الامر فلجأ الموارنة الى حصونهم يرقبون مرور تلك الزوابع
حتى اذا تفرقت قوات المسلمين في العالم عاد الموارنة الى
القتال بعنادٍ شديد .

«وينا المدن السورية نائمة عن قتال العرب كنت ترى
الموارنة يواصلونه بلا انقطاع وقد بلغ منهم البأس مبلغاً
جعلهم يهزأون بأمر امبراطور القسطنطينية حين اشار عليهم
بملازمة السكينة ، فانهم رغم اشارته لم يلقوا السلاح قط . «
ثم يتطرق المؤرخ الى ذكر ما عاناه العرب من
البنانيين ويأتي على بيان ما حاوله معاوية من الاعمال
توصلاً الى خضد شوكتهم وكسر شرهم فلم ينل منهم
منالاً قال :

«عبي معاوية جيشاً لجباً وسيره على لبنان حتى
يسط ساططه على سوريا كلها وقد قسم جيشه الى ثلاثة

فيالقي واصدر أمره ان تطبق في وقت واحد على جبيل
وبسكنتا وبشراي . فردت تلك المدن حملات الهاجيين
ودافعت دفاعاً باسلاً فتمكنت بفرط ما بذلت من جرأة
وثبات من ارغام العرب على رفع الحصار . . وبعد ما نال
الموارنة ما نالوا من التوفيق والنجاح جمعوا شملهم من كل صوب
حتى الفوا جيشاً ينيف على الثلاثين ألفاً واحتلوا بامرة خيرة
قوادهم مواقع حصينة اخذوا يشنون منها الاغارات على
وادي العاصي وسهول دمشق وأكروها ما يناهز الستين ألفاً
من العرب على الوقوف امامهم في سوريا ، ولولا قتال هؤلاء
الحلفاء المتواصل وما اظهروه من الشجاعة والحنكة لتفرغت
تلك الجيوش لحرب الروم وتمكنت من الزحف على القسطنطينية ،
وربما كانت تلك القوة كافية كافلة لسقوط العاصمة البيزنطية ؛
ذلك هو العامل الكبير الذي ذكرناه في بدء كلامنا والذي
كان له الفضل الاكبر في درء الخطر عن عاصمة
الامبراطورية الرومانية »^١

فمساعدة لبنان للروم على العرب تثبت استقلال لبنان
منذ هاتيك الايام واستبسال ذلك العنصر اللبناني في الذود
عن حرите وامتيازات بلاده . ولو لم يكن لبنان يومئذٍ
ذا مركز خاص لا كره اللبنانيون على القتال مع العرب
اسوةً بسائر الاقطار السورية .

وقد ظل اللبنانيون على استقلالهم حتى قدم الصليبيون
الى سوريا فخالف لبنان الصليبية على الدولة الفاطمية لذات
الاسباب التي جعلته في الجيل السابع يحالف الروم على دولة
بني امية .

وقد نالت الصليبية من تلك المحالفة ما ناله الروم
قبلهم من الفوائد فكان اللبنانيين في نجاح الصليبيين وفوزهم
فضل كبير ذكره لهم المؤرخون



الباب الرابع

لبنانه على عهد الصليبيين^١

لم يهتزّ العالم منذ بدئه لعاطفةٍ او لفكرةٍ اهتزازة لنصرة الدين سواءً أتاه على يد بوذا او موسى او عيسى او محمد في نهاية القرن الحادي عشر دَوَى في اوربا صوتُ داعٍ الى الجهاد رَدَّتْ صداه ممالكها من الشمال الى الجنوب ، فجرفت النعرة الدينية سيلاً عرمرماً من الرجال والنساء والاولاد تدفق من الغرب على الشرق ، ولم يحلْ دون تياره ما اعترضه من الاهوال والكوارث برداً وجوعاً

١ راجع الكردينال هرجنتر: تاريخ الكنيسة ج ٤

والدبس: تاريخ سوريا ج ٦

وابا الفدا: ج ٢

وعطشاً ومرضاً واقتتالاً : تلك هي الحروب الصليبية^١
ولم تصل جيوش الصليبية الاولى الى سوريا الا وهي
منهكة القوى^٢ حتى انها حين شارفت لبئاس كان بلغ منها
الاعياء مبلغه فلو تصدّى لها فيه عندئذ جيش^٣ معادي لظفر
بها^٤ وقد لا يكون قام للصليبية بعدها في الشام ذلك الملك
الواسع الذي تم لها حوالي المائتي سنة
الا ان الدولة الفاطمية التي كان لها الحكم عهدئذ في
سوريا وقعت في نفس الخطأ الذي سبق للامويين ارتكابه
فهي لم تضرب صفحاً عن الفوارق الدينية فتتحالف لبنان

١ حملات الصليبية ثمان : الاولى : ١٠٩٦ — ١٠٩٩ بشر بها بطرس
الناسك (يار لارميت)

الثانية : ١١٤٧ — ١١٤٩ بشر بها القديس برنردوس وسارت بامرة
كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا وحاصرت الشام
وعجزت عنها واضطر الملكان الى الرجوع الى اوربا

الثالثة : ١١٨٩ — ١١٩٢ بشر بها غليوم مطران صور وزحف بقيادة
فردريك بربروس امبراطور المانيا وفيليب اوغست ملك فرنسا ورينارد قلب
الاسد ملك انكلترا

الرابعة : ١٢٠٣ — ١٢٠٤ بشر بها فولك دي نولي وقادها بودوين التاسع
كونت دي فلاندر

حتى يكون معها يداً واحدة في الملهمات الطارئة ، فظل
البنانيون والحالة هذه ينظرون الى كل غازٍ مسيحي نظرهم
الى حليفٍ طبيعيٍ تجمعهم واياء رابطة الدين وهي اذ ذاك
اقوى الروابط وأمتها

وكما استفاد الروم من البنانيين على عهد معاوية هكذا
استفاد الصليبيون من لبنان يوم بلغوا سوريا ، فأنهم استنجدوا
البنانيين فلجأهم لبنانُ بخيله ورجله وفيه يومئذٍ من الرجال
الاشداء المدربين على حمل السلاح من يعدُّ بالألوف ،
فانضموا الى الصليبيين وغشوا معاً الاقطار الشامية فقامت
الصليبية على اطلال الدولة الفاطمية وكان في ذلك للبنانيين
يدٌ جلى ذكرها لهم المؤرخون . فقد جاء في « سوريا الحديثة »
اصحابها جول دافيد عن وصول الصليبيين الى لبنان في

الخامسة : ١٢١٩ - ١٢٢١ بامرة جان دي برين ملك اورشليم
واندراوس ملك المجر

السادسة : ١٢٢٨ - ١٢٢٩ قادها قردريك الثاني خليفة جان دي برين
على مملكة اورشليم

السابعة : ١٢٤٨ - ١٢٥٢ قادها لويس التاسع ملك فرنسا وانكر في
مصر في واقعة المنصورة

الثامنة : ١٢٧٠ - قادها لويس التاسع نفسه وتوفي امام تونس

طريقهم الى القدس ما ترجته :

« بعد ان مشى الجيش (جيش الصليبيين) بضعة

ايام على سفح لبنان وصل الى حيث لم يكن بدّ من الولوج

في الجبل فتغيرت حينئذ الامور على غير ما يريد الصليبيون

فان الجبال كانت عالية نوائى تطلُّ على هاويات عميقة

اذا زلَّ اليها المرء تهشم في انحداره على نواشزها ، فساروا على

دروب منهكة ضيقة ، تملأها حصى زالقة ، وتعاوها صخور

هاوية ، ومن الجانبين وديان بعيدة القرار ، فلو تصدَّى

للجيش بضعة انفار من الاعداء في بعض هاتيك المآزق

لصدَّوه ونالوا منه ، الا ان الجيش لحسن حظه ، لم يلق في

مسيره شيئاً من ذلك ، بل كان الامر بالعكس فان ضلع

اهالي الجبل كان مع الصليبيين . اولئك هم « الموارنة » الذين

ساعدوا الصليبيين فكانوا هداة لهم في الطريق وسباقاً

للجيوش . وهكذا مرَّ الصليبيون امام بيروت وصيدا وصور

مواصلين زحفهم بلا قتال . . »^١

وقد نوره بذكر أعمال اللبنانيين وما بذلوه من
المعونة الفعالة مؤرخو الصليبيين الذين دوّنوا حوادث تلك
الايام وكانوا عليها شهود عيان كغليوم مطران صور وجاك
دي فيتري مطران عكا وغيرها

من ذلك ما جاء في تاريخ غليوم مطران صور عن
الموارنة اللبنانيين :

« ولم يكن ذلك الشعب قليل العدد فهم على ما يقال
يربون على الاربعين الفاً وهم يسكنون ارض فينيقية ولبنان .
وكان هؤلاء القوم على جانب عظيم من البسالة والتدرب
على السلاح ولقد ساعدوا قومنا المسيحيين مساعدات جلي
في محاربة اعدائنا .. »^١

وفي ذلك يقول الشدياق :

« انه سنة ١٠٩٩ قدمت الافرنج من انطاكية الى
القدس فلما وصلوا الى عرقا وفد اليهم اناس من المردة من
جبل سير وصقع الضنية وجبل تلك المخوم وترحبوا بهم

وسار معهم بعض^١ وهدوهم الطرقات والمسالك حتى بلغوا
القدس وكانوا ينجدونهم في الوقائع ويمدّونهم بالميرة^٢ .
وذكر المسيوراي في تاريخه عن «جاليات الفرنجة في
سوريا في الجيل الثاني عشر والجيل الثالث عشر» من كلام
له عن اللبنانيين أنهم في حصار طرابلس قد بذلوا معونة جلي
للكونت سان جيل وساعدوه على فتحها^٣ .

وما زال اللبنانيون ينجدون الصليبيين بالمال والرجال
حتى أتى سوريا الملك لويس التاسع فلم يكتفِ الموارنة
بتعزيد الصليبيين في سوريا بل تطوَّع منهم عدد^٤ وافر من
لبنان وقبرس^٥ حيث كانت لهم جالية كبيرة^٦ واشتركوا في
حملة الصليبية السابعة التي زحفت على مصر سنة ١٢٤٥ بأمر
الملك القديس. وقد نوّه المؤرخون ببسالة أولئك الشجعان
أبناء الجبال ووصفهم «بحاملي سلاح الايمان في الداخل

١ الشدياق ص ٢٠٣

٢ ا. راي : جاليات الفرنجة في سوريا في الجيدين الثاني عشر والثالث عشر

عن ٢٨

وسلاح الحديد في الخارج»^١

وفي ذلك يقول الكردينال «هرجنتر» في كتابه
«تاريخ الكنيسة»:

«كان عدد الموارنة وفيراً في جزيرة قبرس وقد خدموا
القديس لويس ملك فرنسا خدمات تذكر...»^٢

وقد اشتهرت خدمات الموارنة للصليبيين وعلاقاتهم
الطيبة معهم، خصوصاً مع القديس لويس، حتى ان كل من
ذكر ذلك العهد لا يرى بدءاً من الاشارة الى تلك الروابط
فيثني عليها

من ذلك ما جاء في خطاب القاه البابا لاون
الثالث عشر في ٢٣ يونيو سنة ١٨٩٠ اثباتاً لانتخاب البطريرك
يوحنا الحاج، قال ما ترجمته:

«وأعمال هذه الامة (المارونية) جليلة طائفة الشهرة
ولقد أبدت منتهى الشجاعة يوم حملت السلاح مساعدة

١ لامرتين: رحلته الى الشرق ج ٢ ص ٥٣٥

٢ الكردينال هرجنتر ج ٤ ص ١٨٢ عدد ٢٦٣

للقديس لويس ملك فرنسا في حروبه في الشرق^١ «
وبعد ان خان الجدُّ الملكَ لويس في مصر وأكره
على الرجوع الى سوريا لم يتخلَّ اللبنانيون عنه في شدّته بل
بادروا الى ملاقاته ونجّده حتى عكا، وكانت قد بلغها في
١٤ ايار سنة ١٢٥٠ فكان لعملهم هذا وقعٌ كبير في قلب
الملك القديس. وفي ذلك يقول المسيو دي لامرتين في
كتابه «رحلة الى الشرق» :

«لما نجا الملكُ القديس من الأسر وعاد الى عكا لاقاه
اليها ٢٥ ألفاً من الموارنة الموالين وقد ارسلهم اميرهم بأصرة
احد ابناهم يحملون الميرة والهدايا على انواعها»^٢
وقد ذكر الشدياق ذلك في تاريخه حيث قال :

«انه لما وصل لويس التاسع ملك فرنسا الى عكا ارسل
اليه اميرُ المردة ولدهُ الامير سمعان ومعه خيل بخمسة
وعشرين الف مقاتل نجدة الملك، فلما اقبل الاميرُ رفع شأنه

١ مجموعة البولات البابوية ص ٥٣٣ للاب طويلا العنيسي

٢ لامرتين : رحلة الى الشرق ج ٢ ص ٥٣٦

وتلقاه بالترحاب وكتب الى امير الموارنة كتاب شكر وحمية.^١
وقد نشر رسالة الملك هذه البارون دي تستا في
مجموعته ولا مرتين في كتاب رحلته وذكرها المسيو رينه بينون
في كتابه « اوربا والدولة العثمانية » وكثيرون غيرهم من
الكتبة والمؤرخين

اما تاريخ تلك الرسالة فهو ٢١ ايار سنة ١٢٥٠ قرب عكا،
ومما جاء فيها قوله :

« ان قلبنا افعم حبوراً لما رأينا ولدكم سمعان في
مقدمة ٢٥ الف رجل موفداً الينا من قبلكم يبلغنا عواطفكم
ويقدم لنا الهدايا واخيول الكريمة .. »^٢

وتمكنت العلاقات بين الملك لويس وبين اللبنانيين
لما اظهروه من سعة الحفاوة وشدة الاخلاص حتى انه لما

١ الشدياق ٢٠٨

٢ الدبس ج ٦ ع ٨٧١ ومايلها وابو الفدا ج ٣ ص ١٨٧ ومايلها

لامرتين : رحلته الى الشرق جزء ٢ ص ٥٣٥ ومايلها

مجموعة البارون دي تستا ج ٣ ص ١٤٠

رينه بينون « اوربا والمملكة العثمانية » ص ٥٤٧

الدوبيي (البطرك اسطفان) : تاريخ الطائفة المارونية ص ١١٠

اضطر الملك الى العودة الى بلاده على اثر وفاة والدته
الملكة « بلانش دي كستيل » أبقى خواص بيته وعسكره
في جبل لبنان واستمروا فيه^١

✱

وقد لقي اللبنانيون كثيراً من الشدائد في مساعدتهم
لصلبيين فلم يكن ذلك ليوقف بهم عن مواصلة انجادهم كلما
وجدوا الى ذلك سبيلاً غير هيايين ولا حاسيين لانتقام
الاعداء حساباً . من ذلك ما جاء في « الدويهي » عن
مناهضة الملك الظاهر لصلبيين قال :

« في سنة ١٢٦٤ خرج الملك الظاهر بعسكره من
الديار المصرية ففتح القليعات وعرة وهم بحصار طرابلس
فانقضت عليه رجال الموارنة من الجبال وهزموا عسكره »^٢
وقال في تاريخ سنة ١٢٦٦ :

١ الدبس : ج ٦ ع ٨٣١ وما يليها

٢ الدويهي ص ٣٧٣

والملك الظاهر هذا هو السادس من دولة المماليك الاولى (سنة ١٢٦٠ الى
سنة ١٢٧٧ عن تاريخ مصر الحديث لرجي زيدان ج ٢ ص ١٤)

« ثم اغار الملك الظاهر على طرابلس فقطع اشجارها
وغور انهارها وخرّب اربعا وعشرين من قراها فانسكبت
عليه رجال المردة من الجبال ففرّ هاربا »^١

ولم يمّ مملوك مصر على الأذى بل باتوا يرقبون الفرص
لأخذ طرابلس من يد الفرنجة وللانتقام من اللبنانيين .
ففي سنة ١٢٨٧ سیر الملك المنصور قلاوون الألفي حملة
على طرابلس ففتحها وارسل جيشه يعيث في لبنان فنال منه
اللبنانيون وهزموه شرّ هزيمة على ما جاء في تاريخ بيروت
لصالح بن يحيى حيث قال :

« في شهر شعبان سنة ٦٩١ (١٢٩٢) توجه الامير
بيدرا قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجه
بصحبته من الامراء الاكابر شمس الدين سنقر الاشقر والامير
قرا سنقر المنصوري والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي
والامير بدر الدين بكتوت العلائي وغيرهم واتاهم من جهات
الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا والامير عز الدين

ايك الحموي وغيرهما . والتقوا بالجبل وحضر الى الامير يدرا
من ثنى عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في أمرهم حتى
تمكن الكسروانيون من بعض العسكر في تلك الاوعار
ومضايق الجبال فنالوا منهم . وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم
وطمع فيهم اهل تلك الجبال حتى اضطر الامير يدرا ان
يطيب قلوبهم ويحسن اليهم وخلع على جماعة من اكابرهم . .
وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن
في حسابهم . »^١

وكان انتصار اللبنانيين للصليبيين من اكبر العوامل
في توسيع شقة الخلاف بينهم وبين حكام سوريا حتى اصبحوا
معهم في قتال مستمرّ زمنًا طويلاً ، نال منها لبنان اهوالاً
ومشقات لا محل للتبسط فيها

١ المشرق : تاريخ بيروت مجموعة السنة الاولى ص ٢٢٨ - يدرا كان
من ممالك الملك المنصور قلاوون ، استنابه الملك الاشرف في دمشق ثم جعله نائب
السلطنة ولم يلبث ان دس لولي نعمته الدسائس فقتله بمشاركة الامراء المماليك
وعهدت اليه السلطنة بعد الاشرف وتلقب بالملك القاهر الا ان ملكه لم يدم الا
يوماً واحداً فقتل سنة ٦٩٢ (١٢٩٤)

ولم تنس فرنسا فضل لبنان على الصليبية بل ذكرته له
ابان عزّها مما حمل لويس الرابع عشر وخلفاءه على مبادلة
اللبنانيين بالمثل كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً كما ثبت
حراسيمهم العديدة الى اللبنانيين^١ اخصهم بيت الحازن وبيت
سعد الخوري^٢ واقامة كثيرين منهم قناصل في بيروت لدولة
فرنسا: منهم الشيخ ابو نوفل الحازن من سنة ١٦٦٢
الى وفاته ١٦٧٩ خلفه ابنه الشيخ أبو قانصو الى وفاته سنة
١٦٩٧ خلفه ابنه الشيخ حصن الى وفاته سنة ١٧٠٨ خلفه ابنه
الشيخ نوفل الى سنة ١٧٥٣ . ثم تقلدها الشيخ غندور الخوري
سنة ١٧٨٨^٣ . وقد كانت لهؤلاء القناصل اللبنانيين يد
طولى في توسيع نفوذ فرنسا في الشرق كما ثبت ذلك حراسيم
ملوكها لهم كقول الملك لويس الرابع عشر في رسالته الى
الشيخ ابي نوفل :

١ مسمد (البطرك بولس) : « الدر المنظوم » ص ١٨٦ ومايليها

الدبس : تاريخ سوريا ج ٧ ع ١٠١٦ وع ١٠٥٨

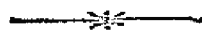
الشدياق : ص ٨٧ ومايليها وص ١٠٥

« قد تحققنا كل ما يُبديه السيد ابو نوفل نادر الخازن من مواصلة العناية والاهتمام لاجل صيانة تاج هذه المملكة حتى انه يصرف اكثر اوقاته فيما يعود بالشرف والنفع لسلطتنا اذ يشهد رعايانا الذين يأتون بلاد المشرق بحسن معاملته لهم وحمايته اياهم ومساعدتهم فيما يصون حياتهم ويحفظ تجارتهم .. »^١



ولما تقلص ظل الصليبية من سوريا في اواخر الجيل الثالث عشر كان حكم الاقطاع قد تأصل في لبنان لاختلاط اهليه بالصليبيين وامتزاجهم بهم فحكم فيه على هذا الشكل^٢ الامراء والمقدمون والمشايخ

وما زال لبنان على هذه الحال من الحكم الاقطاعي والاستقلال حتى فتح الاتراك سوريا على يد السلطان سليم سنة ١٥١٦



الباب الخامس

لبنان على عهد الطعنيين

تمهيد

الدولة العثمانية والبلقان ولبنان

الدولة العثمانية

شا دبنو عثمان ملكاً رائعاً نشرت الويته المظفرة في
اسيا واوربا وافريقيا فاخضعوا فيها جنسيات شتى وشعوباً
مختلفة غلبوها على امرها بحدّ السيف وبحدّ السيف عادت

(1) DE LA JONQUIÈRE : *Histoire de l'Empire Ottoman*

RENÉ PINON : *L'Europe et l'Empire Ottoman*

V. BÉRARD : *La Révolution turque*

P. ALBIN : *Les Grands Traités politiques*

تلك الجنسيات والشعوب فزحزحت عن مناكبها كل كل ذياك
الجبار الغازي فرجع الى حيث كان او كاد

ولم تل الانسانية من ذلك الصراع الهائل الا المصائب

والويلات واراقة دماء الالوف والملايين من العباد

ان في تاريخ بني عثمان لعبراً ناطقة على استظهار الحق

على القوة ، وان طال الزمان واختلفت صروف الحداث :

وضع « ارطغرل » أسس سلطانه في ظل علاء

الدين السلجوقي (١٢٣١) ولم يلبث ان وسع « عثمان »

الكبير رحاب ذلك البنيان ووطد قواعده على انقاض

الدولة السلجوقية ، ولقب نفسه « بادشاه آل عثمان »

(١٢٨١ — ١٣٢٦) ومات بعد ان اشتد به ساعد الملك وتركه

لا بناء اباسل ظلوا يتنافسون في الفتح والتوسع حتى ريعت

اصولتهم البلقان واهتز عرش الروم باربابه ووقفت اوربا

امام ذلك التيار الجارف واجمة لا تعي

فاشرف « اورخان » على القسطنطينية (١٣٥٧)

وسحق « مراد الاول » جيوش البلقار في تيرنوف وشمولا

وقوض اركان الدولة المصرية في سهل قوصوه
(١٣٨٧ و ١٣٨٩)

واكتسح «بايزيد» البلقار فعظمت شوكته حتى
اضطربت اوربا فشهرت عليه حرباً صليبية جمعت كبار
امرائها وبسل قوادها فالتقى بايزيد باعدائه في سهل
«نيكروبوليس» ولم يرجع عنهم الا وجيوشهم فلول هامة
تلقفها سيوف الظافرين (١٣٩٦)

وكان تلك الفترة من الدهر ، وهي ما يناهز المئتي سنة ،
نصراً متواصلاً لاولئك السلاطين . وكانهم اتعبوا الدهر فيها
فتحاً وغزواً فقطب في وجههم ولم يكد بايزيد يتمتع بنصرة
نيكروبوليس حتى بُلي بواقعة «انقره» فظفر به «تيمورلنك»
وأسره ، فاداله من حلق عزه فهوى بسقوط بايزيد ، الى
حين ، نجم الدولة العمانية (١٤٠٢)

غير انها ما عثمت ان رزقت ذاك الفاتح الكبير
«محمد الثاني» (١٤٥١—١٤٨١) فاستعاد السلطنة عزها بفتح
القسطنطينية عاصمة الروم (١٤٥٣) وأسلم له «دافيد كومين»

امبراطور طربيزند الرومي مفاتيح المدينة وخضعت له القرم
ودانت له البلقان

ونهج «سليم الاول» (١٥١٢-١٥٢٠) على منوال
أسلافه ففتح كردستان وديار بكر والموصل ودانت له مكة
وصنعاء وغزا مصر وسوريا ومدّ سيادته على لبنان .

وقد قُدّر للسلطان العظيم «سليمان الاول»
(١٥٢٠-١٥٦٦) ان يرقى بالدولة الى اوج المجد فاخضع
لشوكتيه ما استعصى على آباءه فاخذ بلغراد وفتح رودس
وتساقبت الى بابه ملوك اوربا ، فأغضى عن «شاركان» ملك
اسبانيا ، غير أنه لم يردّ سؤال «فرنسوا الاول» ملك فرنسا .
وقد قهر الفرس وفتح قسماً من بلاد الكرج وتوفي عن
ملك واسع الاطراف مرهوب الجوانب لم تره الدولة لا قبله
ولا بعده ، رغم فتوحات تالية ابلغت «كارا مصطفى» وزير
«محمد الرابع» الى ابواب فينا سنة ١٦٨٣

وما زالت الدولة تتقلب بين انكسار وانتصار ، لا تعرف
رأياً الاّ للسيف ولا تحترم الاّ عهد القوّة ، حتى جمعت تحت

لوائها امماً وشعوباً مختلفة الاجناس لا حق لها عليهم الا حق
الفتح والغلبة ، فبدلاً من ان تقوى بهم كانوا سبباً في
ضعفها وآلة لتقطيع اوصالها

أخضع السلاطين ممالك البلقان من صرب وبلغار
ورومان ويونان ، ودوخوا البلاد العربية ومدوا سيادتهم على
لبنان ، فما برحت تلك الشعوب تطال الى استقلالها وتفكك
حلقات القيد واحدة بعد اخرى حتى تمكنت بعد مغالبة
اجيال دامية من استعادة حريتها ، ففرجت عن عنقها كلاباً
الغاصيين وأفلتت من اسرها تنفس الصعداء ، ظمأى الى
النور ، عطشى الى الاستقلال .

البلقان

ملخص تاريخ البلقان السياسي هو ان الدولة العثمانية
نشرت رايتها على تلك البلدان منذ القرن الرابع عشر
وصيرتها ولايات عثمانية اقامت على كل منها حاكماً تركياً كسائر
ولايات الدولة. وقد ظلت البلقان تجر سلاسل العبودية زهاء

اربعة قرون حتى قام فيها دعاة الوطنية وسعوا الى تكسير تلك القيود بعد ان نفخت فرنسا في العالم روح الحرية وعلمته الانتفاض على الاستبداد .

فعند مغيب القرن الثامن عشر لعلت في فضاء فرنسا صاعقة الثورة الكبرى فترامى دويها الى سماء البلقان فقدحت ثم في فجر القرن التاسع عشر ، شرارة في صربيا فعلقت في هسيم اليونان وامتدت الى رومانيا ومنها الى البلغار فالجبل الاسود ، فاشتعلت شبه الجزيرة البلقانية بنار الثورة وما زالت تضطرم فيها حتى التهمت رايات الهلال فتساقطت أعوادها مزجاة في ذلك الاتون المسجور ولم تنطفئ نيرانه الا وعلم الاستقلال يخفق على اسوار بلغراد واثينا وبوخارست وصوفيا وستنبجه .

ولو تركت امارات البلقان وشأنها ازاء الدولة العثمانية لما استطاعت واحدة منهم ، على ما يثبت التاريخ ، ان تخلع عن عنقها نير الفاتحين . غير ان اوربا اخذت بيد تلك الامارات وأنجدها بالمال والرجال والسياسة وما زالت تبذل

فما المعونة حتى تمتت بها من ولايات عثمانية الى الاستقلال
الداخلي ثم الى الاستقلال المطلق فكانت اوربا للبلقان
كلام الخنون تهدد المهد لوضعها وتواصله بعنايتها حتى
يتزعزع ويشب ويبلغ اشدّه

وبين تاريخ البلقان السياسي وتاريخ لبنان السياسي
اوجه شبه عديده ولعل لبنان جاهد في سبيل حريته اكثر
مما جاهدت البلقان ، في حين ان اوربا ساعدت البلقان
اكثر مما عضدت لبنان

مدّ السلاطين سيادتهم على لبنان منذ بدء القرن
السادس عشر ، الاّ انهم لم يخضعوه قط كما اخضعوا البلقان
ولم يتوصلوا الى تولية حاكم تركي عليه كما فعلوا في صربيا
ورومانيا والبلغار والجليل الاسود ، بل ظلّ لبنان محتفظاً
باستقلاله الداخلي وبعائلته المالكة الوطنية من المعنيين الى
الشهابيين الى عهد القائم مقاميتين حتى معاهدة سنة ١٨٦١

نارت البلقان سعياً الى نزع السيادة العثمانية بعد
اربعة قرون قضتها في العبودية ، اما لبنان فلم ينم يوماً على

الأذى بل بدأت فيه الحركة الوطنية على الدولة منذ بدأت سيادتها عليه تقريباً ، وتوالى فيه من نحر الدين الكبير الى الأمير بشير الكبير ، قارة تستمر وطوراً تخبو ، وفي اغلب الاوقات تعقد الوية النصر للبنانيين ، حتى تدخلت اوروبا في الامر لأول مرة من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٤٥ : وبينما ترتب على تدخلها في البلقان استقلال ممالكها ، كانت نتيجة تدخلها في لبنان تجزئة الإمارة اللبنانية القديمة وشرط البلاد الى شطرين . ثم تدخلت فيه ثانية سنة ١٨٦١ فاسفر تدخلها عن نزع الحكم من الوطنيين وعن سلخ اراض حيوية للبنان وعن جعل الطائفة اساس الحكومة اللبنانية . وهي امور أضعفت لبنان سياسياً واقتصادياً وكانت اصل كل البلايا التي نزلت به بعد ذلك ، فلم يتم له ما تم للبلقان .

وقد كان سبق لاوروبا ان تدخلت بين اليونان والدولة سنة ١٨٢٩ فألزمت الدول تركيا بالاعتراف لليونان بالاستقلال ورغم انتصار الأتراك عليهم في اغلب المواقع .

وقد واصلت اوروبا تدخلها في شؤون البلقان وعنايتها

بهم حتى انه لم تأت سنة ١٨٧٨ الا ومعاهدة برلين قد جعلت
البلقان امارات وممالك مستقلة ، فيما كان المتصرفون في لبنان
يفتاتون كل يوم على الامتيازات بما خولهم اياه النظام من
السلطة الواسعة حتى انتصروا تلك الامتيازات ما استطاعوا
بدلاً من ان تزداد

ومما يستوقف النظر ان هنالك شعباً مدهشاً في تطور
الثورة في البلدان البلقانية : ففي كل بلاد منها كان يقوم
بطلٌ وطني فيلتف حوله افرادٌ معدودون ثم يتبعه فريق
من الشعب فيحاربون تركيا فيتداول الفريقان النصر
والغلبة حتى اذا اوشكت تركيا ان تسحق العصاة ، برزت
اوربا الكريمة كالملك المنقذ ، فمدت يدها اليهم فانزعجتهم من
مخالب المنون ومنحتهم فوق ما كانوا يحلمون به

وهناك ايضاً امرٌ يستوقف النظر وهو ان كل ممالك
البلقان قاست في اول عهدها احوالاً ومحنًا داخلية تشيب
لغضاغنها الاطفال فلم تكن تلك المصائب لتثني عزمها عن مواصلة
السعي والجهاد في سبيل غايتها ، وما زالت تتقلب بين القلاقل

والثورات حتى استقر لها الملك موطد الأركان

أما لبنان فلم يكن يسعدده الحظ ، أثناء حروبه المتواصلة
مع الدولة ، بأن يجد من يعينه على تحقيق « غايته الوطنية »
فذهب والحالة هذه هدرًا كل ما أراقه من دم ذكي على ممر
الاجيال في سبيل الاستقلال .

واليك البيان بإيجاز عن صربيا واليونان ورومانيا
والبلقار والجبل الأسود ، ثم لبنان : فكم ثم من عبر وعظات ..

*

صربيا

نشر راية الثورة في صربيا سنة ١٨٠٤ بطلها المشهور
« كارا جورج » . وقد كانت عاصفة الاستقلال والوطنية
قد فاقَت في صدره كل عاطفه سواها فمضى لا يحسب
للموت حساباً ولا يرى دون غايته حائلاً ، ومما يؤثر عنه
انه لما ثار على الدولة اضطر الى مغادرة البلاد ليهيئ معدات
الثورة خارجاً عنها . فامتنع والده عن اللحاق به وحاول ان
يثنيه عن عزمه خوفاً عليه وحذراً من الفشل ، فأخذ

كارا جورج يضرع الى ابيه ان لا يثبت عزيمته وعزائم من
حواله وان يضحى بكل شي في سبيل الوطن ، وارتى على
اقدامه يقبلها مستعطفاً . فلم يرجع الوالد عن رايه بل توعد
ابنه بافشاء أمره واصر اصحابه اذا هم لم يخلدوا الى السكنية
ويعودوا الى منازلهم هادئين . ولما طال الامر بين الوالد والولد
ورأى كارا جورج تصميم ابيه ، وانه سيقول الثورة في بدنها
ويودي به وباصحابه فيشتد نير الاتراك على البلاد ، صعد
الدم الى راسه وتملكته ثائرة الغضب لوطنه فأخذ والده بين
يديه وهزه صائحاً به :

« خير لك ان تموت ايها الشيخ التاعس من ان تموت
البلاد » ، ورماه برصاصة فقتله

ولم تكن البلاد لتتعد عن دعوة رجل بلغ منه التده
في الوطنية مثل هذا المبلغ فقام الشعب لصوته والتف
الصرب برايته فشهر الحرب على الدولة وظفر وعسكره
بجيوشها في مواقع عديدة على قلة عددهم وكثرة جيوش الدولة.
واخص انتصاراته كانت في موقعتي شبتس ووارين ، حيث هزم

بثلاثة آلاف مقاتل جيشاً من الأتراك لا يقل عن
الثلاثين ألفاً ، كما فعل يوسف بك كرم في لبنان بعدها
بستين سنة حين هزم برجاله الثلاثة ، أربعة آلاف من
جنود الدولة .

ولم يسعد الجدُّ كارا جورج حتى النهاية ، فتغلب العددُ
على البسالة وانتصرت القوةُ على الحق ، وقد لقي كارا جورج
معارضات من بعض أعضاء الحكومة التي كان هو نفسها
اقامها في صربيا فاضطر الى الالتجاء الى بلاد المجر ووقع
اخيراً بيد الدولة فأودت به كما كانت غدرت بفخر الدين
من قبله .

الأمر ان النار التي كان اوقدها لم تنطفي بل ظلت كامنة
خلل الرماد حتى عاد فأضرمها «ميلوش اوبرينوفيتش» ، وعلى
أثر مواقع دامية بينه وبين عساكر الدولة نادى به مجلسُ
نواب الصرب «السكوتشينا» اميراً على البلاد واضطُرَّ
الباب العالي الى الاعتراف به سنة ١٨٣٠

وقد حدثت في صربيا قلاقل داخلية الجأت الامير

ميلوش سنة ١٨٣٩ الى التنازل لابنه « ميلان » فلم
يتول الحكم الا بضعة اسابيع ثم تنازل للامير « ميشيل » فلم
يجلس طويلاً على سرير الامارة واضطر الى مغادرة البلاد
سنة ١٨٤٢ فانتخبت « السكوبتشينا » مكانه الامير
« الكسندر كارا جورجفتش » وهو ابن بطلم كارا جورج
وتأمنياً للصرب على استقلالها وضعت الدول الامارة

الجديدة تحت ضمانتها، في معاهدة باريس سنة ١٨٥٦
ولم تسلم البلاد رغم ذلك من الفتن الداخلية فخلعت
« السكوبتشينا » الامير الكسندر واسترجعت الامير « ميلوش »
في ديسمبر سنة ١٨٥٨ فتوفي بعدها بستين (٢٦ ايلول ١٨٦٠)
نخلفه الامير « ميشيل » وما عثموا ان قتلوه في ١٠
حزيران سنة ١٨٦٠ فخلفه ابن عمه الامير « ميلان » وله من
العمر اربع عشرة سنة

وقد وقعت على عهده حرب ثلاثة بين الصرب وتركيا
سعيًا الى الاستقلال المطلق سنة ١٨٧٦ ففشلت فيها صربيا
الا انه رغم ذلك اعترفت معاهدة سانت ستافو لصربيا

بإستقلالها التام وأقرتها عليه ماهدة برلين ونوديه بها
مملكة سنة ١٨٨٨

وفي سنة ١٨٨٩ تنازل الملك ميلان لابنه «الكسندر»
وعمره ١٢ سنة وهو الذي قُتل مع امرأته الملكة دراجا في ليل
١٠ - ١١ حزيران سنة ١٩٠٩ فجلس بعده على سرير الملك
الأمير « بطرس كارا جورجفيتش » ابن الأمير الكسندر
حفيد كارا جورج الكبير وهو ملك الصرب الحالي
فترى بما تقدم أنه على أثر حركة كارا جورج وميلوش
أوبرونوفيتش ، أخذت أوروبا بيد الصرب ورغم ما حدث فيها
من القلاقل الداخلية تمتت بها من الاستقلال الذاتي
إلى الاستقلال المطلق حتى أصبحت مملكة عزيزة الجانب
لها من الحرمة لدى الدول ما حملن على عمل المعجزات في
سبيل انقاذها في هذه الحرب الكبرى



ليونان

كان « اسكندرايسلتي » لليونان ما كان كارا جورج
لصربيا فقد نادى بالثورة سنة ١٨٢١ داعياً قومه الى الجهاد
في سبيل الاستقلال

وقد كان خيم ظل الهلال على « الاكروبول » دهرًا
طويلاً فاسدل ستاراً كشيئاً على أمجادها ، وتوطن الظلم بلاد
« سقراط » « واخيل » اجيالاً عديدة فقتل فيها النخوة
والمهزة ، فلما دوى صوت ايسلتي في ليل رقادها العميق
أفاق الناس وهم كأنهم يفتقون من مبات اهل الكهف فلم
ينفض منهم الا نفر قليل لم يستطع معهم الى النجاح سبيلاً ،
فدارت الدائرة عليه كما دارت من قبله على كارا جورج ووقع
في ايدي الاتراك وتوفي في سجنه قبل ان يرى علم الحرية
يخفق على بلاده .

الا ان صوته لم يمت فمالت الثورة بلاد « المورة »
وامتدت منها الى « جزر الارخيل » واخذ الثائرون « ائبدا »
من يد الاتراك في ٧ نيسان سنة ١٨٢١ ونادت الجمعية الوطنية

في ١٣ كانون الثاني سنة ١٨٢٢ باستقلال البلاد وشكلت حكومة جعلت على رأسها « مفروكر داتو » .

واغرق كاناريس في ليل ١٨ — ١٩ تموز سنة ١٨٢٢

عمارة تركيا في مضيق شيو

ولما رأت الدولة استفحال الثورة في اليونان استنجدت

بمحمد علي فأرسل ابنه ابراهيم على جيش كثيف ، فتمكن

القائد المصري من استرجاع البلاد وعاد الأتراك فدخلوا أثينا

باهرة رشيد باشا

فاهتز الرأي العام في اوربا وتألفت فيها الجمعيات

الادبية « صديقة اليونانية » وفيها امثال « دلافين »

« وفيكتور هوغو » « والورد بيرون » فاستنفر الشعراء

والكتاب دولهم على تركيا فلم تلبث ان تعدت تلك الحركة

الفكرية الى المجالس النيابية والحكومات فهبت فرنسا وانكلترا

وروسيا انتصاراً لاثينا ودمرت عماراتهن في « نافارين »

العمارة العثمانية المصرية في ٢٠ ت ا سنة ١٨٢٧ ، ونزلت

حملة افرنسية الى الدرو حاربت مع العسكر اليوناني فأكرهت

الجيش التركية المصرية على الانسحاب واخلاء البلاد .
وفي كانون الثاني سنة ١٨٢٨ أُلقيت مقاليد السلطة الى
الكونت « كابوديستريا » ، وفي ٢٢ اذار سنة ١٨٢٩ أُعلن
بروتوكول لوندرا اليونان امانةً بالارث مع ضرب جزية
عليها للدولة .

وفي معاهدة ادرنه ١٤ ايلول من السنة ذاتها ، تعهدت
تركيا بقبول بروتوكول لوندرا المذكور ، فلم تكتفِ الدول
بذلك بل امضت بروتوكول ثانياً في لوندرا في ٣ شباط
سنة ١٨٣٠ وفيه جعلت اليونان مملكةً مستقلة تمام الاستقلال
وواصلت الدول الثلاث عنايتها بالمملكة الجديدة فاهتمت
بتنصيب ملك عليها ، فاتفق الرأي على الامير اوتون نجل ملك
بافاريا لويس الاول ، فعين ملكاً على اليونان باسم
« اوتون الاول » (معاهدة ٣ ايار سنة ١٨٣٢)

وفي سنة ١٨٦٢ قامت حركة في اليونان لمحاربة تركيا ،
فعارض فيها الملك « اوتون » فاختلف مع المجلس والشعب
فأدى ذلك الى خلعه ، وانتخبت الجمعية الوطنية بدلاً منه

الامير غليوم بن خريستيان التاسع ملك الدنمارك ، ونودي به ملكاً على اليونان باسم الملك « جورج الاول » وهو رأس العائلة المالكة الحالية (معاهدة لوندرا ١٣ تموز سنة ١٨٦٣)

ولم تكتف الدول بان عثقت اليونان من نير تركيا وجعلتها مملكة مستقلة كالمالك الكبرى بل بلغ بها العطف عليها ان تنازلت لها انكلترا عن جزر بحر اليونان وهي كورفو وسيفالوني وكسانتي وسنت مور وايتاك وسريجو وباكسو (معاهدتا لوندرا ١٤ ت ٢ سنة ١٨٦٣ و ٢٩ اذار سنة ١٨٦٤) وهي الجزر التي كانت معاهدة باريس وضعتها تحت حماية انكلترا (٥ تشرين الثاني سنة ١٨١٥) ثم ارغمت الدول تركيا على التنازل لليونان عن مقاطعة تساليا ايضاً

وعلى اثر حرب سنة ١٨٩٧ لم تسمح الدول لتركيا ، رغم انتصارها الحربي التام ، بان تذلل اليونان بل الزمتها على قبول صلح حفظ كيان المملكة اليونانية وكرامتها ولا تزال الدول حتى الساعة ساهرة على تلك المملكة

الصغيرة تواصلها بعنايتها ، تدراً عنها الاخطار وتبذل لها
ما تشاء من المساعدات ذكراً لاجداد « سبرتا » وحرمة
لعلوم « ائينا »

رومانيا

على اثر الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٢٩ احتلت
روسيا ولايتي ملدافيا والفلاخ « البغدان والافلاق » تاميناً
لها على اخذ الغرامة الحربية من تركيا

وكان اهل تينك الولايتين من الرومان يتطلعون الى
استقلالهم كسائر الشعوب البلقانية ، فاستبشروا بالروس خيراً
وباتوا يأملون ان تحقق روسيا غايتهم الوطنية وتنبيلهم
الاستقلال

اما روسيا فكانت تسعى الى مصلحتها الخاصة وتغتم
فرصة وجودها في رومانيا حتى تتوصل الى امتلاك البلاد
وتنفيذاً لهذه الخطة باشرت تنظيم الحكومة في الولايتين على

قاعدة دستور سمته « القانون الاساسي »^٦ وهو فيما نص عليه من الامور الاساسية يقطع امانى الرومان بالاستقلال قطعاً باتاً، والروس يعتقدون انه يكفي الرومان انعتاقهم من نير الترك، وان بقاءهم تحت الحكم الروسي سعادة لهم

اما الرومان فلم يكونوا في ذلك على راي روسيا، فلم يرضوا عن استقلالهم بديلاً . فلم يلبثوا ان نادوا على روسيا في الولايتين بوقت واحد^٦ (٧ حزيران ١٨٤٨)

فقمعت الثورة في ملدافيا بسهولة اما في الفلاخ فكانت اشد مراساً فان الشعب احاط بسراي الحاكم الروسي جورج ييسكو ونادوا به رئيساً على الحكومة الثورية وارغموه على توقيع مشروع دستور يلغي القانون الاساسي الذي وضعته روسيا . وكان من اخص رجال الثورة الياد وبلسيسكو ودولياك وتل ماغرون وجولسكي وروزني واخوان براتيانو .

فاتفق اذ ذاك القيصر والسلطان على الرومان وزحفت جيوشها على الفلاخ فأخضعوها وأعادوا عليها الحكم الروسي (١٨٤٩) فاضطر ابطال الثورة ان يلبثوا الى البلاد

الاجنبية حيث واصلوا مساعدتهم لدى الحكومات ومع رجال السياسة ففازوا بعطف الكثيرين على قضيتهم اخصهم نابوليون الثالث وهو قد كان يرتاح الى الأخذ بناصر الشعوب الصغيرة ، فانه اهتم بملافايا والفلاخ في معاهدة باريس ونال من المؤتمر ان يقرر رفع الحماية الروسية عن الولايتين وان يعترف لهما بامتيازات واسعة

وقد جعلت المعاهدة تلك الامتيازات في ضمانه الدول المشتركة حتى لا تستأثر واحدة منهن بشيء فتعيد تمثيل الدور الذي مثلته روسيا يوم استأثرت بالحماية سنة ١٨٢٩

ولم تلبث الدول أن منعت تركيا من كل تدخل في أمر انتخاب حكام الولايتين (اتفاق باريس ١٩ آب ١٨٥٨) فبادر اذ ذاك الاهالي الى انتخاب الامير «الكسندر جان كوزا» حاكماً عليها فكان انتخابه تمهيداً لاتحاد الامارتين (١٨٥٩)

وفعلاً ما عثم الامير كوزا أن أعلن اتحاد الامارتين بمنشور تاريخه ٢٠ كانون الاول سنة ١٨٦١ وهو بعد

معاهدة لبنان بستة شهور تقريباً ، وقد جعل لها الامير
مجلساً نيابياً واحداً مركزه « بخارست » فاضطرت تركيا
الى الاعتراف بذلك

وعلى اثر حوادث داخلية لا محل لذكرها تنازل
الامير كوزا سنة ١٨٦٧ فألقى المجلس مقاليد السلطة الى
« حكومة مؤقتة » قوامها جولسكو وهارالميك ولاسكار كاتارجي
فاهتم هؤلاء بايجاد امير خلفاً للامير كوزا ، ففاتحوا امير فلندر
اخا ملك بلجيكا فلم يقبل ، وكان نابوليون الثالث لا يزال
يوالي اهتمامه برومانيا فأشار على حكومتها ان تعرض الامارة
على الامير « شارل هوهنزولرن سيجمارينجن » فعملوا بإشارته
وقبل الامير ان يتولى العرش وهو رأس العائلة المالكة اليوم
وقد قرّرت اوربا استقلال الامارة الرومانية في معاهدي
سان ستيفانو وبرلين واعترفت بها مملكة بالارث سنة ١٨٨١
فترى من ملخص تاريخ رومانيا السياسي ان الامة
كانت تطمع ، لا بخلق نير تركيا فقط ، بل بنيل استقلالها
الوطني المطلق وانه رغم التفاوت العظيم بين قوات روسيا

الهائلة وبين عجز رومانيا الضعيفة كانت الغلبة في آخر الامر
للحق على القوة ، وقد كان للسياسة في الحصول على هذه
النتيجة شأن يذكر لا سيما المساعدة التي بذلها نابوليون
الثالث للرومان .



بلغاريا

لم تكن بلغاريا اقل حظاً لدى الدول من صربيا
واليونان ورومانيا : فقد اضطرت فيها نار الثورة سنة ١٨٧٥
فلم تفر من الحرب بطائل حتى سير القيصر جحافلها الجارة
على تركيا وأرغمها على قبول معاهدة سان ستيفانو ، وفيها
تقرر استقلال بلغاريا الداخلي . ولم تضمن معاهدة برلين
وحدة الامارة البلغارية بل شطرتها شطرين ، كما فعلت
اتفاقية سنة ١٨٤٥ في لبنان اذ قسمتة الى قائمقاميتين ، وقد
جعلت معاهدة برلين شمال البلقان اماره ذات استقلال
داخلي تحت سيادة الدولة ، وعليها امير يصير انتخابه بموافقة

الدول . وفعلاً انتخبت الجمعية الوطنية في « تيرنوفو » اميراً
على البلاد فوقع الانتخاب على الأمير « الكسندر دي باتبرج »
سنة ١٨٧٩

وقضت المعاهدة بان تكون الجهة الجنوبية ولاية الروملي
وبان يبقى عليها باشا تركي مع استقلال نوعي
الآن ان نرغب البلاد الى الاستقلال المطلق حماهم على
السعي الى توحيد الامارتين كما حصل قبلها انما خيا وملا فيا ،
وكما جرى في لبنان لدى الغاء القائمقاميتين والرجوع الى وحدة
الحكومة ، وما زالت الحركة تختصر في الروملي حتى انفجرت
الثورة في عاصمتها فيلبوبولي ونادت بجهة ثورية ، على رأسها
سترانسكي انباسل ، باتحاد المقاطعتين ، في ايلول سنة ١٨٨٥
ودعت الامير الكسندر اليها فلبى دعوتها وبادر الى فيلبوبولي
حيث اعلن الضم فكانت من ثم الامارة البلقارية
وعليها الامير الكسندر

١ ولد في فيرون سنة ١٨٥٧ وهو النجل الثالث لفرنس الكسندر دي هس
ابن اخت القيصر اسكندر الثاني

ولم يلبث الامير ان اضطر الى التنازل عن العرش
لتغير القيصر اسكندر الثالث عليه فاستعفى في ٧ ايلول
سنة ١٨٨٦ واستلم مقاليد الحكومة الموقته ستمبولوف
وكارافلوف وفوستكوروف، واجتمعت الجمعية الوطنية في
تيرنوفو فانتخبت الامير « ولدمار الدمركي » فلم يقبل
(١١ ت ٢ ١٨٨٦)

فاضطر البغار الى التفتيش على امير غيره وبعد ان
طافوا عواصم اوربا وقع الاختيار على الامير « فرديندي سكس
كوبور غوطا » فرضي الامير ان يتولى عرش بلغاريا فاجتمعت
الجمعية الوطنية ثانية وانتخبته في ٧ تموز ١٨٨٧

فاستلم الامير زمام الحكم ووزيره الاكبر ستمبولوف.
ولم تسلم بلغاريا من الاضطرابات التي تحدث عادة على اثر
انقلابات كهذه، فحصل فيها قلاقل وفتن داخلية ادت الى
ارتكاب كثير من الجنايات السياسية اخصها قتل
ستمبولوف سنة ١٨٩٥

ولم تمنع هذه الاضطرابات بلغاريا من السير في طريقها

الى الرقي والاستقلال المطلق ، فاعترفت الدول بالامير الجديد
سنة ١٨٩٧ وظل الامير فردينند يرقب الفرص وبلغاريا
تتحفز للوثوب الى تاج « المملكة » حتى آتته وآتتها الظروف
في خريف سنة ١٩٠٨ ، بعد نشر الدستور في تركيا وضم
النمسا للبشناق والهرسك ، فباغت الاميرُ العالم بالمناداة في
تيرنوفو « بالمملكة البلغارية » وباخذ لقب « قيصر البلغاريين »
(٥ ت ١ ١٩٠٨)

فما عثمت ان اعترفت اوربا بالمملكة الصغيرة وبالقيصر
الجديد واضطرت تركيا الى الموافقة عليها بمقتضى اتفاق
مُعقد بينها وبين بلغاريا وقعته في ١٩ نيسان ١٩٠٩
وقد دفعت روسيا مهر استقلال بلغاريا فتنازلت
لتركيا عن مبلغ طائل من الغرامة الحرية التي قررتها لها
معاهدة سان ستيفانو ، كما سبق لانكلترا ان دفعت مثل هذا
المهر لليونان يوم تنازلات لها عن جزر بحر اليونان .

الجبل الاسود

ان الدول يوم قررت مصير البلقان في معاهدة برلين ،
لم تنس ان تضمن لتلك البقعة الصغيرة الجبلية حقوقها
فاعترفت باستقلال « الجبل الاسود » الذاتي ثم اعترفت به
مملكة ذات استقلال تام في آب ١٩١٠ . والجبل الاسود
لا يوازي نصف لبنان عدداً .

فترى مما تقدم ان اوربا كانت تتسابق الى عون
تلك الممالك البلقانية وتكوينها وتوسيعها كأنها الامم الرؤوم
تتعهد ابناءها بالحب والحنان ، وليس بكثير على شهامتها ان
تسدي الى لبنان مثل اليد التي اسدتها منةً وكرماً الى البلقان

لبنان

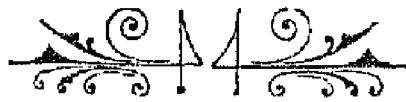
ان ملخص تاريخ لبنان السياسي هو ان الحركة الوطنية
سعيًا الى خلع السيادة العثمانية ، بدأت فيه منذ اواخر الجبل

السادس عشر فتأصلت وظهرت في اوائل الجيل السابع عشر وما زالت تملأ حياة قومه وتريق دماءهم زهاء قرنين ونصف قرن ، ولبنان لا يزال محروماً من نيل غايته الوطنية فقد ثار نحر الدين الكبير على الدولة في بدء القرن السابع عشر وحاربها اكثر من ٣٥ سنة ، واخيراً خانه الحظ كما خان كارا جورج بعده بنحو مئة وخمسين سنة . ولم ينفك لبنان بعده عن قتال الدولة حتى حروبه الرائعة معها على عهد الامير بشير الكبير زهاء نصف قرن ولم يكن حظ هذا الامير الشهابي اسعد من حظ سلفه الامير المعني .

وقد لاح في منتصف القرن التاسع عشر ان اوروبا تريد ان تعمل للبنان ما عملته لهمالك البلقانية فبدأت بالاعتراف له بالاستقلال الداخلي الا انها رغم ثورة يوسف بك كرم اولاً وثانياً ورغم جهاد اللبنانيين المتواصل لم تقدم الدول خطاها ولم تنتقل بلبنان كما انتقلت بالصرب واليونان والرومان والبلغار والجبيل الاسود من الاستقلال

الداخلي الى الاستقلال المطلق ، ولعل السياسة الدولية لم
تساعدنا يومئذٍ على اجراء العدل للبنان كما أجرتة للبلقانت ،
فلا شك أنها تنصفه اليوم وتُعيضه مما فات فتحقق له معاهدة
الصلح الآتية ما قصرت عنه معاهدة سنة ١٨٦١ فيمنح
استقلالاً يريحه الى الابد اسوةً له بتلك الممالك الصغيرة التي
انشأتها اوربا ، انصافاً للشعوب الضعيفة وختاماً لعهد الاستعباد

وفي الفصول الآتية بيان لتاريخ لبنان السياسي منذ
الفتح التركي لسوريا حتى سنة ١٨٦٠



الفصل الاول

الأمير نحر الدين المعني الاول والامير قرقماس

فخر الدين الاول

يوم فتح السلطان سليم الاول سوريا (١٥١٦) كان كبيرُ امراء لبنان الأمير نحر الدين المعني الاول ، وهو الرابع عشر من امراء بني معن واولهم الأمير معن الايوبي أتى الى لبنان سنة ١١٢٠ وضرب خيامه في بلاد الشوف وهي يومئذٍ لاتكاد تكون مأهولة بالسكان « ثم ترك الخيام وبني المنازل وصار يحث اصحابه وقومه على العمار حتى كثر السكان . »

وتعاقب المهنيون على حكم الشوف^١ بينا الامراء
والمقدمون والمشايخ يحكمون في الغرب او الشمال^٢ حتى
الفتح التركي

وكان نخر الدين رجلاً شجاعاً فصيح اللسان سهل
الخطاير. ولما عقد النصر للسلطان سليم^٣ نزل الامير للسلام
عليه في دمشق والتقى بين يديه دعاءً شائقاً فأحببه السلطان
لاجل فصاحته وجسارته فقربه اليه وأقره على امارته
« وجعله مقدماً على الجميع »^١. ولم يألُ نخر الدين جهداً
في تعمير البلاد وتحصينها « فبنى بنايات عظيمة وقلاعاً حصينة
ومد سلطاناه من حدود يافا الى طرابلس »^٢ ولم ينل
بسوء حتى وافته منيته سنة ١٥٤٤ خلفه ابنه الامير قرقاس



١ الشدياق : ص ٢٥١

٢ الامير حيدر احمد الشهابي : الفرر الحسان ص ٦١٢

الامير قرقماس

وكان ان عظم بطش السلاطين العثمانيين واشتدت وطأتهم في سوريا فباتوا ينظرون بعين الكره الى لبنان وما له من الامتيازات فوطنوا النفس على اغتنام اول فرصة لدخول الجبل .

وما لبثت ان سنحت تلك الفرصة سنة ١٥٨٤ على اثر سرقة اموال الدولة الاميرية (الخزينة) في جوف عكار فالقيت التهمة فيها على اللبنانيين فصدر أمر الباب العالي بجمع العساكر والزحف على لبنان فجرّد ابراهيم باشا جيشاً لجباً دهم به الجبل على حين غرة فلم يوفق الامير قرقماس الى ردّ الاعداء عن البلاد فاضطر الى الالتجاء الى مغارة في بلاد الشوف تحت جزين فاخفى هناك مدة ثم حدث له مرض فمات تاركاً ولدين صغيرين : نخر الدين ويونس .
وامهما الست نسب :

الفصل الثاني

الامير نجر الدين الثاني الكبير^١

(١٥٨٢—١٦٣٥)



شعر اللبنانيون على اثر تلك الحادثة ان الدولة اخذت
تضيق عليهم الخناق وان لا قبل لهم بصدد اطماعها بهم ما
داموا متفرقين غير متضامين فسعى عقلاؤهم الى توحيد الكلمة
في البلاد امام ذلك الخطر الداهم فساعدهم على ادراك غايتهم

١ الدويهي ص ١٨٣ ومايلها

الشدياق ص ٣٥٢ ومايلها

الامير حيدر الشهابي ص ٦١٨ ومايلها

شرشل : جبل لبنان ج ٢ ص ٣٣٨ ومايلها .. الخ

مقامُ المعنيين في لبنان وتربية احدثهم واعظمهم فخر الدين
الكبير في كسروان قلب البلاد المارونية :

كان للمعنيين كرامة جلى في لبنان لاسباب عديدة
منها ترفعهم عن التعصب الديني واحلالهم المصلحة اللبنانية
فوق كل اعتبارات اخرى حتى ان مدير الامير قرقماس
كان الحاج كيوان الديراي الماروني . ومنها اقامة المعنيين في
لبنان وتأصلهم فيه من سنة ١١٢٠ حتى اصبحوا وطنيين
صميمين بعد ان مضى عليهم في لبنان ما ينيف على
الاربعمائة سنة

اما تربية فخر الدين في كسروان فحكايتهما : انه لما
هلك الامير قرقماس ، سعى ابراهيم باشا الى الايقاع بولديه
الامين الصغيرين فخر الدين ويونس ، فلبأت بهما والدتهما
الست نسب الى مدير زوجها الحاج كيوان وطلبت منه ان
يخبثهما عند أحد الامناء في كسروان ونهض بهما ليلاً ومعهما
والدتهما الى كسروان قاصداً فيه رجلاً من وجهاء الموارنة
المخلصين هو الشيخ ابو صقر ابراهيم الخازن . فبلغوا الى

بلونه مقرّ الشيخ أبي صقر وقصّ عليه الحاج كيوان الأمر،
فأكرم أبو صقر وفادتهم وحضن الأميرين ورباهما أحسن
تربية ولم يدر بهما أحد .

وقد ترعرع الأميران في حضن أبي صقر على المبادئ
القويمة والأخلاق الكبيرة والوطنية الصحيحة فشبا وفي
صدرهما كره الدولة قاتلة أبيهما والعاملة على اذلال البلاد،
فكانت كل حياتهما سلسلة حروب مع الدولة اخذاً بشار
والدهما من جهة، ودفاعاً عن حقوق الوطن من جهة أخرى .
وقد كانت إقامتهما عند الشيخ أبي صقر بين الموارنة وفي
صميم البلاد المارونية، أكبر عامل على نزع كل عواطف
التعصب الديني من نفسيهما الكريمة فلم يدركا سن الرشد إلا
وهما على جانب عظيم من سمو الأخلاق والوطنية الصحيحة
مما ظهرت نتائجه الطيبة في كل أدوار حياتهما . وأول عمل
أتياء بعد أن بلغا أشدهما وتولى فخر الدين إمارة الشوف،
أنهما دعوا الشيخ أبا صقر إبراهيم إليهما وبالغوا بآكرامه والحقاوة
به ذكراً معروفاً معهما وصدق تربيته لهما . وقد جعله

فخر الدين مدبراً له وأقام اخاه رباحاً الخازن دهقاناً
ولم يلبث ان توفي ابو صقر ابراهيم ، فأقام فخر الدين
مقامه ولده الشيخ ابا نادر مدبراً له وجعل فيما بعد الشيخ
نوفل ابن الشيخ ابي نادر مدبراً لاولاده ، ولم يكتف الامير
بإظهار ميله الى بيت ابي صقر بل تعداه الى غيره من
وجهاء الموارنة فاخذ في خدمته الخاصة الشيخ ابا ضاهر
حيش ، توثيقاً لعرى الاتحاد بينه وبين النصارى
وكان الامير رحب الصدر سامي المدارك فلم يستبد
بالامر في لبنان بل جعل الحكم فيه شورى على نوع ما ،
بمن اقامهم حواله من اعيان البلاد واقطابها فكانوا مجلس
شوراه ، لم يتخل عنهم ولم يتخلوا عنه حتى آخر ايامه
وقد كانت كل تلك الظروف عاملاً كبيراً في تمكين
الروح الوطنية في صدور اللبنانيين فتوثقت عرى المودة بين
اهل الشمال واهل الجنوب وجمعت بين وجوه البلاد على
اختلاف طوائفهم فكان من اختلاط اللبنانيين ببعضهم
ومن اتفاق مصالحهم امام الخطر التركي ، انهم باتوا يشعرون

أنهم «شعب واحد» تجمهم «لغة واحدة» «وبلاذ واحدة»
«ومصلحة واحدة» ، فاتحدوا وتضافروا ، فتكونت من ثم
«القومية اللبنانية» وحلت محل «العنصرية الطائفية» .

وحدث في البلاد ميلٌ عام الى توحيد الحكم ، فم ذلك
على يد فخر الدين الثاني فهو الذي وحد «الامارة اللبنانية»
فشكل الحكومة على قاعدة القومية والكفاءة لا على اساس
الدين والمحسوبية ، وجعل غايته كل مدة حكمه توسيع حدود
البلاد ونزع سيادة الدولة عن لبنان فخاربها في سبيل ادراك
تلك الغاية حروباً طويلة وعقد محالفات قوية في اوربا ،
وأورث تلك الغاية لخلفائه حتى أصبحت «الغاية الوطنية»
الكبرى للبنان واللبنانيين

ونظراً لمقام فخر الدين في البلاد ومحبة الجميع له
واحترامهم اياه فضلاً عن اتفاق المصلحة العامة ، لم يلق
الاميرُ صعوبة في توحيد الامارة ، فلم يلبث ان اعترف
الامراء والمقدمون والمشايخ بحكمه ، وهم انما يعترفون لأميرٍ
وطني لبناني ، لا لأجنبي عنهم .

ثم عمد الى العمل على توسيع الامارة وعلى قطع كل علاقة كانت تربطه بحكومة الاستانة فأخذ يعدّ عدته للامر وهو لا يترك في اعماله شيئاً للتقدير ولا يعتمد في اموره على الحظ وحسن الصدف، فوضع لكل عمل خطته مما لا يقل في شيء عن ادق ما وضعه اكبر الفاتحين وامهر السياسيين :

علم ان القوة محور كل عمل فنظم جيشاً لبنانياً يضارع أرقى جيوش ذلك العهد عدةً وعدداً ونظاماً، وادرك ان حياة الجيش والملك انما هي المال فعهد الى الاكفاء من رجاله بتنظيم مالية البلاد فوضعوها على احسن القواعد ورتبوها على ادق حساب حتى كثرت موارد الخزينة واينعت ثروة الامة، ولم يفته ان اساس الملك هو العدل فاجراه في البلاد على يد رجال أحسن اختيارهم فكانوا عند ثقته بهم .

ولما استوثق من مناعة جيشه وثبات ماليته ابرز نواياه الى حيز العمل فزحف بجيشه اللبناني على الولايات المجاورة فاكتسحها واستولى على بلاد حوران وعجلون

وما زال يتنقل من بلد الى بلد غازيا فاتحاً حتى دق ارتداد
خيامه على ابواب دمشق

وما لبث ان اطاعت نفسه الى أبعد من ذلك فصيح الى
الإستانة قاعدة السلطنة كما صيح اليها معاوية من قباه
فاخذ يتأهب لتحقيق ذلك الحلم الرائع الذي تقاصر عنه معاوية
وحفقه محمد الثاني

ومن الماثور عنه في ذلك قوله : « انما السلطنة نقل تخم
فكلما تملكنا بلاداً نتقوى برجلها وامواها وننتقل
الى غيرها. »

*

وكانت الدولة في تلك الاثناء قد أوجست شراً من أمير
لبنان ورأت ان الأمر قد اتوى عليها فيه : فبدلاً من
ان تلحق الجبل بالولايات أخذ الجبل يمدّ سيطرته على السهل
ويزداد نفوذ فخر الدين في سوريا ازدياداً هائلاً
فلم تبصر الدولة على ذلك ؛ وعلى عرش السلطنة

يومئذٍ السطان أحمد الاول ، بل عبأت الجيوش وجهازها
بما تحتاج اليه من الميرة والذخيرة « وارسلت على أمير لبنان
ألفي رجل من انكشارية اسطنبول وخمسين سنجقاً و ١٤
بكيربكياً من ديار بكر واناطولية وقرمان والرها وطرابزون
وحلب وطرابلس والشام وغيرها من الاماكن ومعهم خمسون
الف مقاتل وعليهم الحافظ أحمد باشا قائد عام ٠٠ »^١
فلما وقف الاميرُ على حقيقة الحال لم يشأ ان يقامر
بقواته ويخاطر بامارته فيحارب الدولة وحده ، ولها ما لها من
العدّة والعدد ، بل ارتأى ان يترك الزوبعة تمرّ فلا يتصدى
لها بل يسافر الى اوربا حيث كان بدأ في مخابرات مع
دولها لايجاد مخالفة على الدولة ، حتى اذا تمّ له ما اراد عاد
الى البلاد وحارب الدولة مستنداً الى جيشه اللبناني والى
حلفائه الاوربيين^٢

١ الدويهي : ص ١٩٠

٢ كان في ذلك العهد لدوقية « تسكانة » مقام رفيع بين حكومات إيطاليا
وأوربا ، بعد حكومة البندقية . وكان على تلك الدوقية اسرة « مدسيس »
المشهورة ودوقها الأكبر سنة ١٦٠٦ « فردينند الاول » . وهو قد بدأ المخابرات

سفر فخر الدين الى إيطاليا سنة ١٦١٢

لما عزم فخر الدين على السفر ، اسر نوابه الى اخيه
الامير يونس وفوض اليه امر الحكم واوصاه ان يكون
مستعداً للحوادث و اشار عليه بالانتقال من بعقلين الى
دير القمر والاقامة فيها فاتفق الاميران على ما يلزم وودع
الامير يونس اخاه في صيدا وانتقل بمن معه الى دير القمر
عملاً بأوامر اخيه وكان ذلك اول انتقالهم اليها .

وجرياً على عادته من عدم الاستئثار بالرأي طلب
فخر الدين من مدبره الحاج كيوان ان يصحبه في سفرته ،
وفيها ما فيها من مخبات الاقدار ، فامثل الحاج كيوان
امره واهتم بتجهيز ما يلزم للسفر من خدم ومال ومراكب .
وفي ١٠ محرم سنة ١٦١٢ أقلع الامير من صيدا على مركب
افرنسي ، تحذو به الآمال الكبيرة وهو اذ ذاك في عنفوان
شبابه غير بالغ الثلاثين ربيعاً . وقد سافر في مركبه خمسون

عم فخر الدين بواسطة السكافير « ليونتيني » وعقد معه محادثة سنة ١٦٠٨
ثم توفي فرديند الاول فخلفه عليها الدوق « كوسموس الثاني » .

رجلاً من حاشيته ونزل الحاج كيوان مع الجوارى في مركبة. آخر
وبعد مضي ثلاث وخمسين يوماً وصل الأمير الى ثغر
« ليفورنا » في إيطاليا فلما رسا مركبه سأل اهل البلدة
عن القادم عليهم فأرسل الأمير يقول « انا فخر الدين المعني حاكم
جبل لبنان » . فأحسنت الحكومة وفادته ، وما بلغ
خبر مقدمه دوق توسكانه الكبير « كوسيموس الثاني » حتى
ارسل وفداً لاستقباله ودعاه اليه في مدينة « بيزا »^٢ . ولما
وصل الأمير اليها بالغ الدوق في الخفاوة به فأخلى له قصراً
من قصوره الفخمة وجعله بما فيه من الرياش والخدم تحت
تصرف الأمير فنزل فيه فخر الدين واخذ نبلاء البلاد
يتقاطرون اليه بالسلام عليه

وسرى حديث الأمير في إيطاليا فارسل ملك « نابولي »
يدعوه الى زيارته فقبل الأمير الدعوة وسار الى نابولي ، وكان
قد سبقه اليها دوق توسكانه لأكرامه والاحتفاء به .

١ شرسل : ج ٢ ص ٣٥٢

٢ ليفورنا ثغر في شمال إيطاليا على البحر المتوسط في مقاطعة توسكانه . ويزا
ثغر ايطالي ايضاً يبعد عن الاول ٤٠ كيلومتر تقريباً

وقد بات فخر الدين في نابولي موضوع انجذاب أشرف
إيطاليا واجلالهم فكانوا يتسابقون إلى دعوته وإقامة
الحفلات الشائقة له . ولم يغرب عن الخاصة هنالك أن لذلك
الأمير اللبناني غاية سياسية يسعى إلى تحقيقها . وكان أول
من فاضله الأمير في أمر المحالفة على تركيا الدوق كوسموس
الثاني . وكانت الدولة العثمانية في ذلك العهد قوية الشوكة
مرهوبة الجانب فلم يسع الدوق القبول فوراً وهو لا يعرف
ما لفخر الدين من القوة في لبنان ، فرأى أن يحتاط للأمر
فيرسل أولاً بعثة إلى الجبل تدرس الحال ثم تعود إليه بتقرير
واف يبي عليه الدوق حكمه

فوافق فخر الدين على رأي الدوق ، فأعدت البعثة
وجهر لها مركب ، وكتب الأمير إلى أخيه وذويه وإلى أعيان
البلاد ينبئهم بما تم له في إيطاليا ويطلعهم على غاية البعثة
ويخضعهم على حفظ القلاع التي هم فيها ويستحث همهم
ويوصيهم بالتيقظ والاستعداد . وكلف الأمير من تابعيه ابن
العيسوق ومحمد بن علي كاور بالسفر مع البعثة لإيصال تلك

الرسائل الاصلها في البلاد

فسافرت البعثة وفيها كثيرون من المهندسين الفلورنتيين.
ولما بلغوا سواحل لبنان نزلوا الى البر قرب صيدا، وصعد
القبطان ورجال البعثة وابن العيسوق ومحمد كاور الى
دير القمر حيث مقر الامير يونس . ولما رأهم الامير يونس
فرح فرحاً عظيماً، واعطوه المكاتب التي له ولاعيان البلاد.
وقد اكرم الامير يونس ووالدته الست نسب ضيوفهم غاية
الاكرام وسهلوا لرجال البعثة اتمام مهمتهم، فطافوا انحاء لبنان
يبحثون وينقبون ليتحققوا بانفسهم ما كان فيه من قوات
وحصون واموال ووسائل دفاع من كل نوع

وفي الوقت ذاته أرسل الامير يونس الى اعيان البلاد
مكاتيبهم فحضرت الاجوبة من الجميع وفيها بيان وافٍ عن
احوال البلاد واخلاص اهليها للامير فخر الدين ، الا واحداً
منهم لم يجب بل ارسل الى الامير يونس يقول « ان اخاه
مغضوب الدولة فلا تقدر ان نجيبه » .

وبعد ان اتمت البعثة عملها واستلم رسولاً فخر الدين
تلك الاجوبة ، عاد الجميع الى ايطاليا وسافر معهم اليها للحاق
بالامير ، الشيخ خاطر الخازن ، مع جماعة من قومه ،
وزبك بن العفيف من اعيان الشوف . فعلم الامير منهم ومن
الاجوبة التي ارسلت له كل ما يهمه عن احوال البلاد ،
وقدّمت البعثة الى الدوق تقريراً ضافياً بما رأوا وسمعوا
وخبروا فجاء تقريرهم اكبر مؤيد لفخر الدين

فلما وثق كوسموس الثاني ان في لبنان قوة لا يستهان
بها وان البلاد كلها يد واحدة مع الامير رضي بمحالفته
ووعده بالمساعدة على انشاء محالفة اوربية على تركيا تكون
على شكل الصليبية ، يدخل فيها البابا وملك اسبانيا فيليب الثالث
فارتاح نخر الدين الى ذلك كل الارتياح ، ولم تغفله بوادر
النجاح في ايطاليا عن وجوب مداومة اتصاله بلبنان . فارسل
اليه وفداً ثانياً برئاسة الشيخ يزبك بن العفيف ومعه كثير
من المال والهدايا توقعاً للطوارئ والحوادث ..

وكان في تلك الاثناء قد تعدى صيتُ فخر الدين ايتالبا فطبقت شهرته آفاق اوربا فخطب ملوكها وده، فارسل اليه ملك فرنسا «لويس الثالث عشر»^١ وفداً يدعوهُ الى زيارة البلاط الملكي في باريس فاعتذر الاميرُ عن تلبية الدعوة مراعاةً لظروف واعتبارات سياسية، واعل السبب في امتناعه ما كان بين ملوك فرنسا وبين سلاطين تركيا من علاقات المودة القديمة مما لم يكن يتفق مع مقاصد فخر الدين

ثم جاءه وفدٌ آخر من ملك اسبانيا «فيليب الثالث»^٢ يحمل اليه كتاباً ملكياً يلح فيه على الامير بزيارته في مدريد. وقد روى صاحبُ الغرر الحسان ان الامير قبل دعوة الملك وسافر الى اسبانيا وبصحبته حاكم مسينا، فلما وصل الامير خرج الوزراء لملاقاته ودخل على الملك هو وحاكم مسينا فترحب بهما واكرم الامير اكراماً زائداً وأخلى له داراً

١ لويس الثالث عشر ابن الملك هنري الرابع والملكة ماري دي مديس

ولد سنة ١٦٠١ ومات من سنة ١٦١٠ الى ١٦٤٣

٢ ملك فيليب الثالث من سنة ١٥٩٨ الى ١٦٢١

عظيمة وظلّ الأميرُ في ضيافة الملك مدة غير وجيزة اطلعه
فيها على احواله واخبره بما كان بينه وبين الدولة من الهداء
فلقي من الملك كل رعاية وانعطاف
ولما رأى فخر الدين ان اموره جارية على ما يشتهي
احبّ ان يرجع مؤقتاً الى لبنان ليقف بنفسه على حقيقة
الحال قبل ان يغادر اوربانياً . فاستأذن من ملك اسبانيا
وركب البحر الى ليفورنا فقصّ على صديقه الغراندوق كلما
حصل له واخبره انه عزم على السفر لتفقد احوال لبنان
بنفسه ثم يعود . فوافق الغراندوق على رايه وركب الأمير
البحر ومعه الشيخ خاطر الخازن . وقد جاء في الغرر الحسان
ما روايته ملخصاً « فلما وصلت المراكب الى ما بين صور
وناقورة عكا نزل الشيخ خاطر وتوجه الى دير القمر ليعلم
الأمير يونس فيلاقوا الأمير الى الدمور . فلما بلغ الأمير
يونس خبر وصول اخيه فرح فرحاً عظيماً وصار في جميع
الشوف فرحاً عظيماً . ثم ان جميع اهالي البلاد توجهوا

برفقة الأمير يونس إلى الدامور ، وكانت الأمير فخر الدين
أعطى الشيخ خاطر ثلاثة أسهم وقال له متى حضر أخى إلى
الدامور رايتم المراكب أقبلت فارم سهماً في الجو بعد ما تشعلوا .
ولما وصلوا إلى الدامور وأقبلت المراكب رمى الأسهم فتتحقق
الأمير أنهم حضروا لملتقاه ، فقربت المراكب إلى البر ورمت
المراسي وابتدأت القوارب تأتي إلى البر وتأخذ الرجال
ليسلموا على الأمير ويرجعوا ، وبقي الأمير يونس عند أخيه
حتى انتهوا وأعلمه بكل ما توقع في غيابه . ثم طلب منه
أن ينزل إلى البر لكي تراه الناس لأن أكثر الأهالي حضروا
إلى ملتقاه من كسروان إلى الشوف فنزل إلى البر وبقي
فيه ثلاث ساعات ونظره الجميع وسلموا عليه . ثم رجع إلى
المركب ورفعت المراكب مراسيها من الدامور وأقلعت . . .
أن في تهافت الناس على ملقى الأمير فخر الدين
رغم عداوته مع الدولة أبرهاناً ساطعاً على ما كان له من

الكرامة والاحترام والمحبة في قلوب اللبنانيين ، بل يدل على
تمكن الروح الوطنية من نفوسهم وتقديرهم مسعى اميرهم قدره
في سبيل البلاد

وبعد ان وقف فخر الدين بنفسه على احوال البلاد
واخذ عنها الخبر اليقين وطأناً ذويه واعوانه وشدد عزائمهم
واعدهم لاستقبال الحوادث القريبة لدى رجوعه في اقرب
فرصة ، ودعاهم ورجع الى ايطاليا. وقد عرت المراكب في
طريقها على مالطه ، وكانت اخبار فخر الدين قد شاعت
وذاعت في سائر الاقطار ، فلما علم اهل الجزيرة بتقدم الامير
خرجوا الى لقائه وفي مقدمتهم حاكم الجزيرة الاستاذ الاكبر
(جرات مايسترو) فاستقبلوه بموكب عظيم وأطلقت
له المدافع

وبعد ثلاثة ايام ودع الامير الاستاذ الاكبر واهل
مالطه ونزل الى البحر فواصل سيره الى ليفورنا ورجع الى
الغراندوق فقص عليه مارآه في رحلته وهي قد دامت
سبعة اشهر .

في تلك الاثناء حدثت في الاستانة حوادث كانت على ما
يوافق مصلحة فخر الدين فمات السلطان احمد الاول مسير
الجملة على الامير سنة ١٦١٢ هـ ، وحدث بعد وفاته اختلاف
على ولاية العهد فخلف السلطان احمد اخوه السلطان
مصطفى ، وما لبث أن ثار عليه العسكر فأسقطه واقام مكانه
ابن اخيه عثمان المعروف باسم السلطان عثمان الثاني ، وهو
فتى في الثامنة عشرة من عمره . وكانت الدولة يومئذ في
مشاكل وحروب مع ممالك بولونيا وروسيا وامارات البلقان
واكبر ظرف موافق لفخر الدين كان عزل الحافظ
احمد باشا عدوه الشخصي ، فلما تغير الحافظ ارسلت الست
نسب تخبر ولدها الامير فخر الدين بما جرى وتطلب رجوعه
عودة فخر الدين

وكان فخر الدين قد أتم مهمته في اوربا فاستأذنت
الغزانديق بالرجوع وودعه وركب البحر من نابولي واقلع
منها في ٢٧ رمضان سنة ١٦١٧ هـ « فبلغ مينا عكا في ٩ شوال
من السنة ذاتها وارسل مملوكه سرورا بكتب الى ولده

الامير علي يعلمه بقدومه . وكان في ذلك الوقت عند الامير علي ، الامير ناصر الدين التتوخي ومقدمو بيت ابي اللمع واكابر الشوف

« فلما قرأ الامير علي كتاب ابيه ما عادت تسعه الدنيا من الفرح وجمع الجميع واعطاهم كتاب والده بخطه وختمه وأمر بالافراح فكان يوماً عظيماً . . . وبادر الى ملاقة ابيه . وبعد ذلك حضر اخوه الامير يونس وهم لا يتماكون من الفرح والسرور

« وما ذاعت في البلاد اخبار عودة الامير فخر الدين حتى تقاطرت الناس الى ملاقاته افواجا وهرع اليه الامراء والمقدمون والمشايخ من كل انحاء لبنان اخصهم مشايخ الشوف ومشايخ بلاد صفد وبلاد بشاره وبلاد الشقيف وبلاد صيدا والامير علي الشهابي وولداه الامير محمد والامير قاسم . وقدم الامير احمد يونس الحرفوش وقدم له خيلاً . وارسل الامير احمد الشهابي ولده الامير سلمان وقدم له خيلاً . وارسل الامير أحمد طريه مدبره وقدم له خيلاً . وارسل

الامير احمد قانصو مدبره وقدم له خيلاً . فقبل الامير الخيل
وخلع على مقدميها ثم سار في البلاد سير الفاتح الظافر بين
الهزيج والناشيد واطلاق البنادق .. »^١

ولما استقر النقام بفخر الدين اخذ ينظم الجيش والمالية
وامور البلاد على النمط الذي خبره في اوربا واضعاً نصب
عينه تحقيق الغاية التي من اجلها غادر البلاد وانشأ المحالفات .
ولم يظهر الاميرُ عدائه للدولة بل فضل ان يرقب الفرص
فيحارب الولاة الواحد بعد الآخر حتى يأمن شرَّ اتفاقهم
وتضافرهم عليه :

وقد بدأ أعماله بحرب آل سيف لانهم كانوا يومئذٍ
ذوي حولٍ وطول في لبنان واكبر عثرة في سبيل توحيد
الامارة اللبنانية . فعزم على قهر كبيرهم يوسف باشا سيف . وقد
احتاط للأمر بأن استوثق أولاً من رضى عمر باشا الكتيجي
والي طرابلس ومساعدته ، فكتب اليه يشكو من اعمال

١ ملخصاً عن الدويهي ص ١٩٥ والفرر ٦٥٩ والشدياق ٢٧٨ وشرشل

يوسف باشا سيفاً . فأجابه الوالي اذا شئت ان تحاربه فاننا
اكون مساعداً لك

فأخذ فخر الدين يعدّ المعدات ويهيئ الرجال مستنفراً
على ابن سيفاً امراء البلاد ومشايخها حتى يطبقوا عليه من
كل جهة ويسدّوا في وجهه سبل النجاة : فقام من صيدا الى
بيروت وكتب الى الامير على الشهابي يستنهضه ، وكتب
الى مدبره الشيخ ابي نادر الخازن ان يرسل رجالاً يحسكون
جسر نهر ابراهيم على الذاهنيين الى الجهة الشمالية لئلا يدري
به يوسف باشا ، واستدعى اليه رجال الشوف والغرب
والجرد والمتن وكسروان ، وكتب الى ولده الامير علي ان
يجمع رجال بلاد صفد وبلاد بشاره والشقيف وصيدا ويذهب
بهم الى غزير ، وكتب الى الامير علي الشهابي ان يوافي
ولده الامير عليا الى غزير ، وكتب الى الامير يونس
الحرفوش ان يضبط ما لآل سيفاً من المواشي والغلال في
القيرائية والهرمل . ثم نهض من بيروت بمن اجتمع عنده
الى نهر ابراهيم ثم الى جبيل ومنها الى اميوت ثم الى قلعة

بُخعون في الضنية وحينئذ توجه نفر من عسكره من اهل
دير القمر للكيس ، فصادفوا الامير محمد بن حسين بن يوسف
باشا مع جماعته وهو فتي في الخامسة من عمره . فلما رأت جماعة
الامير الصغير ذلك العسكر تخلوا عن اميرهم هارين فقبض
عليه اهل دير القمر واخذوه الى الامير فخر الدين
وكان فخر الدين كبير النفس يشهد تاريخه بنبالة اخلاقه
وسمو عواطفه ، فلما رأى الاسير الفتى رأف به وبوالدته
فارسل يخبرها بسلامة ابنها وانه في رعايته لتطمئن اليه
وفي غضون ذلك كان نفذ الامراء أوامر فخر الدين
فقدم الى غزير ابنه الامير علي بعسكره ومعه الامير
علي الشهابي بعسكره ايضا

« اما فخر الدين فنهض بعسكره من قلعة بخعون الى
قرية تولا ، ولما بلغ يوسف باشا قدومه أرسل حريمه ومثمناته
الخفيفة قدامه الى قلعة الحصن « حصن الاكراد » في طريق
ونهض برجاله منهزماً الى القلعة ذاتها في طريق اخرى
فطارده فخر الدين بثماية فارس من عسكره وبينما هو مجد

في لحاقه أدركه الليل فظهرت من بعيد عشرة مشاعل خارجة من عكار على طريق الحصن ، فأسرع في أثرهم حاسباً أنهم ابن سيفا ورجاله ، فاذا هم فريق النساء والاحمال ، فأبت عليه مروءته إلا أن يحميهم من كل أذى فاستحلف فرسانه ألا يمدوا أيديهم إلى النساء ويكتفوا بأخذ الاحمال .

اما يوسف باشا فلما سمع الضوضاء ، أطفأ مشاعله وأسرع بعسكره إلى قلعة الحصن وهو لم يدافع عن حريمه وماله وكان في تلك الاثناء قد دخل عسكر الامير عكار وغنم ما فيها ، اما الامير فبلغ قلعة الحصن قبل وصول عسكره من عكار . فلما أقبل عليها وجد جميع امراء آل سيفا متهيئين برجالهم للقتال وعندهم بنو الصواف مقدمو المتن برجالهم . فلم يحجم فخر الدين بل أقدم صائحاً بقومه : القتال ، وزار كألسد وشن الغارة وانقض هو وفرسانه على القوم فانهمز يوسف باشا بقومه متسابقين إلى تلك القلعة للتحصن فيها .^١

وكانت فخر الدين عارفاً بنون القتال يباشره بنفسه
ويعمد فيه الى اساليب فنية محكمة ، طالما استعملت في
هذه الحرب ، كحفر الخنادق واقامة المتاريس من اكراس
الرمل والتراب .

ولما أيقن ابن سيفاً انه مقهور لا محالة ارسل كنته^١
ومعها نساءً ليشفعن به لدى فخر الدين : « وبينما كان الامير
في خيمته واذا ابنة داخلة اليه ومعها نساءٌ فالتصت منه العفو
عن آل سيفاً »

وقد علمت من اخلاق فخر الدين انه كان كبير النفس
لا يلين لقوي ولا يصلب لضعيف فأحسن استقبال ذلك
الوفد من السيدات وطيب قلب كنة يوسف باشا ووعدوها
باجابة سؤلها

وبعد ان استظهر فخر الدين على يوسف باشا سيفاً
وكسر شوكته ، مال على غيره من الولاة وزعماء العشائر :

١ هي زوجة حسن بن يوسف باشا سيفاً وبنت فخر الدين (الشدياق ص ١٦٤
و ٣١٣ ومايلها)

فأعلن الحرب على الأمير أحمد طريه وظفر به ، ثم حارب مصطفى باشا وغلبه في واقعة المجدل . وكان أثناء سيره في البلاد يشيد القلاع في طريقه جاعلاً له فيها قواعد حصينة يستند إليها في المواقع ، فبعد أن أطاعه في وادي التيم الأمير أحمد الشهابي ، وفي حاصبيا الأمير علي الشهابي ، سار إلى بانياس فرمم قلعتها ، وإلى صرخد فبنى فيها قلعة ، ثم نهض إلى بعلبك ورمم قلعتها ، ثم إلى قبّ الياس وبنى فيها قلعة .

وحدث في ذلك العهد غلاء في دمشق فأرسل أهل المدينة يشكون حالهم إلى الأمير ، فأرسل إليهم جالاً في حمل جمل قمحاً ، وفي اليوم الثاني في حمل أيضاً . ثم جمع جمال حوران ودوابها وأمر أصحابها أن ينقلوا القمح إلى دمشق وأمر أن يكون رطل الخبز بقطعتين ، ثم أتى إلى مرجة دمشق فخرج أهل المدينة كباراً وصغاراً إلى ملاقاته يدعون له بالنصر وطول البقاء وقد سار إلى غرب حماه فقدم إليه أهلها طائعين ، وشرع ببناء قلعتين أحدهما شمالي قلعة الشماميس تجاه حلب والآخرى فوق انطاكية ، ونهض إلى بلاد الثغر وبيلاط

فقدم اليه والي حلب وقدم له ثلاثين ذهباً و ألف حمل مؤونة
للعسكر وطلب منه الاحسان للرعايا .

وقد كان الفضل الاكبر في انتصارات نحر الدين لا انتفا
اللبنانيين حوله من كل فجٍ وصوب محارين جميعهم
تحت لوائه على اختلاف مذاهبهم باتحاد تام في سبيل غاية
وطنية واحدة

وقد نتج عن تضافرهم في ميدان القتال وهرق
دمائهم جنباً الى جنب أنهم تأخوا واتحدوا فباتوا في
تلك الصفوف وهم يشعرون انهم شعب واحد تجمعهم حكومة
واحدة بصرف النظر عن الطوائف والمذاهب ، فأقام
فخر الدين عمالاً على البلاد من كل الطوائف على السواء
لم ينظر في تعيينهم الا الى كفاءتهم واقتدارهم : فولى الشيخ
ابا نادر الخازن على بلاد جبيل ، والشيخ ابا صافي اخاه على
بلاد بشريه ، والمقدم يوسف الشاعر على بلاد البترون ،
فكانت من ثم « الامة اللبنانية » و « الامارة اللبنانية »
وهما منفصلتان عما يحيط بهما من العناصر والولايات

وقد بلغ لبنان يومئذٍ أوجَ عزّه ومجده وبات اميره
فخر الدين الكبير عزيز الشوكة واسع السطوة ، وقد اقرّته
الدولة على فتوحاته واطلق عليه السلطان لقب « سلطان البر » .
ولقد أصبح لبنان في ذلك العهد مملكة ضخمة قوية واسعة
الاطراف مرهوبة الجوانب تمتد سلطانها من حدود
حلب الى حدود القدس الشريف^١ وكان فخر الدين
يوصل في تلك الاثناء مخبراته مع ملوك اوربا وامراتها
ويفاوض في الوقت ذاته فرسان جزيرة مالطه حتى كاد يوجد
دعوة صليبية جديدة على تركيا :

واول من شرع بتنفيذ المحالفة وبذل المساعدة الفعلية
للأمير كان دوق توسكانه « كوسموس الثاني » ، فأرسل اليه
سنة ١٦٣٠ الكافليير « فراتزانو » ومعه مرآكب عديدة تقلّ
المهندسين والعملة الاختصاصيين وكثيراً من الميرة والذخيرة^٢

١ الشدياق ص ٣٩٦

٢ وقد حفظ امراء توسكانه ذكراً طيباً للبنانيين فلم تنقطع العلاقات بينهم
حتى ان الدوق كوسموس الثالث لما علم بوجود احدهم الحوري بطرس مبارك في
روما حوالي سنة ١٧٠٠ استدعاه اليه في فلورنسا فجعله رئيساً لمطبعة الشرقية التي

وفي الوقت ذاته كان العلامة ابراهيم الحاقلافي^١ يفاوض
«البابا اوربانوس الثامن» للانضمام الى المحالفة

وكانت الامور من هذه الجهة جارية على ما يشتهي
نصر الدين: فالنصر باسم^٢ له واوروبا مهتمة بمساعدته وتركيا
تسعى الى مرضاته حتى سكر الامير بخمرة الفوز ولم يعد
يحسب لاعدائه حساباً فطمح بابصاره الى السلطنة غير مخفٍ
نواياه ولا متستر في مظاهره وقد بنى في بيروت خاناً
للوحوش تقليداً «للسلطنة» مثيراً هواجس الباب العالي وحذره.

*

ومن نكد الطالع ان حدث في اوروبا حوادث في ذلك

كان انشأها الدوق فرديناند دي مدسيس^٣ ثم عينه فيما بعد استاذاً للبرانية في كلية بيزا
(عن قاموس اللاهوت الكاثوليكي طبعة باريس سنة ١٩٠٩ ج ١ ص ٩٤٠)

١ ابراهيم الحاقلافي او الحاقلي ولد في حافل «من بلاد جبيل» في اوائل
الجيل السابع عشر. ومن المعروف ان للموارنة من قديم الزمان دالة خاصة على
الباباوات حتى ان البابا غريغوريوس الثالث انشأ لهم في روما المدرسة المارونية
المشهوره سنة ١٥٨٤ حيث تلقى الحاقلافي علومه. وبالنسبة لتسكن الروح
الوطنية من اللبنانيين في ذلك العهد على اختلاف مذاهبهم ونظراً لمقام الحاقلافي
في الفاتيكان كان ذلك العلامة اشد نصير وأوفى معتمد لفخر الدين لدى البابا
اوربانوس الثامن في سبيل خدمة البلاد. (عن الدويهي ص ١٧٠ والدر المنطوم
ص ١٩٥. والدبس عدد ١٠٢٩. وجو بلان ص ١١٤)

العهد^١ غيرت مجرى الأمور على نحر الدين وكانت لها في لبنان صدى شؤم ووبال على الحركة الوطنية: وحكاية ذلك انه تفشى في ايطاليا وباء الطاعون الفظيع فانهمك «كوسموس الثاني» في درء الوباء عن بلاده وكان له من امورها الداخلية شغل^٢ عن نحر الدين فكف عن ارسال الميرة والذخيرة اليه واستدعى من لبنان الكافليير «فرازانوا» مع مهندسيه وعماله

وكان من جهة اخرى ان اشتدت في اوربا وطأة «حرب الثلاثين سنة» وعصفت فيها ريح التباغض بين الكاثوليك والبروتستانت فريعت لها البايوية ولم يعد باستطاعة البابا ان يمد^٣ فخر الدين بمساعدة ولا ان يدعو اوربا الى حرب صليبية جديدة واوربا يومئذ غارقة في بحار فتنها وحروبها الرائعة^٤

وقعت تلك الحوادث في اوربا فاغتتمت الدولة الفرصة

١ «حرب الثلاثين سنة» هي سلسلة مغازعات وحروب دينية سياسية

شغلت اوربا من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨

السانحة لها على فخر الدين فجهزت حملة اشدّ هولاً من
الاولى التي سيرتها عليه في بدء حكمه :

ففي سنة ١٦٣٣ أصدر السلطانُ مِرَادُ أمره الى الصدر
الاعظم خليل باشا فعبئت الجيوش وزحفت على لبنان
بامرة احمد باشا الحافظ كجك فوصلت الى الجبل يوم كانت
انقطعت عن فخر الدين مساعدة حافائه الاوريين ، مما
حسن في مركز الحافظ الحربي . فانتشب القتال بين
الفريقين وظلّ مدة سجّالاً بينهما ، تارة يسم النصر للبنانيين
وطوراً يعبس في وجوههم حتى اصيبوا بنقد قائد هم العام الامير
علي بن الامير فخر الدين وهو من أمر قواد زمانه ، فكان
فقدّه فاتحة شؤم ووبال على قومه ، ففارق السعدُ ألوية
البنانيين وما لبث ان استظهر الحافظ كجك عليهم والتوى
الاميرُ على فخر الدين . وكان للامير في انقلاب الدهر عليه
اسوة بمن سبقه ومن لحقه من قواد عظام وملوك كبار خانهم
القدر في بلوغ مارموا اليه من الغايات الوطنية .

اولاده الامير حسين مع مدبره الشيخ نوفل الى قلعة المرقب حيث اضطروا الى التسليم. ولجأ فخر الدين مع سائر اولاده منصور وحيدر وملك يصحبهم مدبره الشيخ ابو نادر الى قلعة شقيف نيرون قرب نبحا ثم انتقلوا منها الى مغارة جزين واضطروا هم ايضاً الى التسليم.

وقد اطلق سراح الشيخ ابي نادر وابنه الشيخ نوفل. اما فخر الدين واولاده فساغروا الى الاستانة حيث غدر بهم "الا بالامير حسين" في ٢ نيسان سنة ١٦٣٥ وعمر فخر الدين ٥٢ سنة.

اما الامير حسين فابقى السلطان عليه وظل في الاستانة حتى بلغ اشده فادخل في مناصب الدولة وتقدم فيها كثيراً. وفي سنة ١٦٥١ كان مرسلًا من قبل الدولة الى الهند فر على لبنان وزار ابن عمه الامير ملحم في دير القمر فترحب به الامير ملحم وعرض عليه ان يقيم في لبنان فيتنازل له عن الامارة. فاعتذر الامير حسين شاكرًا لابن عمه فضله وصروته. وبعد ان اقام عشرين يوماً في ضيافته واصل طريقه. ثم رجع الى الاستانة ولم يعد بعدها الى لبنان (الشدياق ص ٣٣٦. الفرر ص ٧٢٨)



الفصل الثالث

الامير ملحم (١٦٣٥ — ١٦٥٨)

والامير احمد (١٦٥٨ — ١٦٩٧)



خلف فخر الدين الثاني على الامارة ابنُ اخيه الاميرُ
ملحم المعني ابن الامير يونس .

ولم يصفُ الجويني الامير ملحم وبين ولاية سوريا
فكان له معهم مواقع مشهودة أشهرها « موقعة وادي القرن »
سنة ١٦٥٣ حيث وقف اللبنانيون من جهة واصطف رجالُ
الامير علي علم الدين اليمني وعساكر والي دمشق بشير باشا
من جهة اخرى . وقد دام القتال ثلاث ساعات استبدل
فيها الفريقان ايما استبدال ، ولم يلبث اللبنانيون أن استظهروا
على الاعداء فزقوا صفوفهم وشتتوا شملهم فولى اليمني

ورجاله الادبار واللبنانيون يعملون في اقفيتهم السيوف حتى
اوصلوهم الى دمشق فلولا مقطعة الاوصال .^١

وكان بين المعنين والشهابيين صلات ودّ وصداقة
فأزوج الامير ملحم ابنته من الامير حسين الشهابي فرزق
منها « الامير بشير » وهو الذي قدّر له ان يكون اول
امير شهابي على لبنان

وبعد وفاة الامير ملحم (١٦٥٨) خلفه ابنه الامير احمد
فكانت على ايامه « وقعة الغفول » عند برج بيروت
سنة ١٦٦٦ بين القيسيين واليمنيين فظفر الامير باليمنيين
واستقلّ بامارة بلادهم جميعها .

وسنة ١٦٨١ أزوج ابنته للامير موسى الشهابي فرزق
منها ولداً دعاه « حيدراً » وهو الذي انتخبه اللبنانيون
على الامارة بعد الامير بشير .

وقد توفي الامير احمد المعني بلا عقب سنة ١٦٩٧

فانقرضت به السلالة المعنية في لبنان وحلت محلها فيه
الاسرة الشهابية .



الباب السادس

لبنانه على عهد الشهابيين^١

الفصل الاول

الامير بشير الاول. الامير حيدر. الخلة. الاميران احمد ومنصور.
الامير يوسف.

الامير بشير الاول (١٦٩٧—١٧٠٧)

ان تاريخ لبنان السياسي^٢ لاسيما منذ فخر الدين الكبير
ينحصر في هذه الجملة: "ذود اللبنانيين عن استقلالهم الداخلي
وسعيهم الى الاستقلال التام بقطع كل علاقة كانت تربطهم
بتركيا."

١ راجع الدويهي والدبس والشدياق والغرر الحسان وجودت باشا ورحلة
لامرئين الى سوريا وتاريخ الدولة العثمانية للفيكونت دي لاجونكيار والكولونل
تشرشل الخ.

فدوداً عن استقلالهم الداخلي حالفوا الروم على العرب
والصليبيين على الدولة الفاطمية وحاربوا الدولة العثمانية
حروباً متواصلة .

وسعيّاً الى الاستقلال التام التفّ اللبنانيون على
اختلاف مذاهبهم حول فخر الدين الكبير وارقوا دماءهم
الغزيرة في قتال تركيا كما اراقوها على عهد الامير بشير
الكبير ، وفي الفترة المنقضية بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠

وقد فهموا وتأكدوا ان تحريرهم لا يتم الا باتفاقهم
واتحادهم شعباً واحداً وحكومة واحدة ، فاتفقوا واتحدوا ، فبات
لبنان من الوجهة السياسية ذا مقام ثابت وطيّد الاركان
يعترف الجميع بمركزه الخاص وبامتيازاته الواسعة .

ولم تكن تنكر الدولة العثمانية على لبنان استقلاله الداخلي
وحقه بحكم نفسه بنفسه فلم تدّع يوم خلت الامارة من المعنيين
بان لها الحق ان تعين من تشاء من رجالها والياً على لبنان ،
كما كانت تفعل بسائر الولايات السورية بل ، اعترفت للبنانيين
بحق اختيار من يريدون خلفاً للامير احمد فاجتمع وجوه

واعيان البلاد وتشاوروا فيمن يقيمون عليهم اميراً
وقد كان كثيرون منهم يليقون للحكم سواء بالنسبة
لحسبهم وغناهم او بالنسبة لجاههم وكفاءتهم . غير ان
الحكمة قضت عليهم بان يجدوا حلاً يرضي الجميع وينفي من
نفوس المتقدمين فيهم عواطف الحسد واسباب الخلاف
فاتفقوا على ان لا يغيروا نظام الحكم في البلاد بل تبقى
الامارة المعنية قاعدة الحكم فيه لاسيما وقد كانت للمعنيين
كرامة جلى في لبنان لما تم له من الخير والعز والجاه على يدهم .
فقرر رأيهم ان يكون الحكم لورثاء المعنيين الاقربين :
فانتخبوا الامير بشير الشهابي ابن الامير حسين ، وهو ابن
اخت الامير احمد المتوفي وابن بنت الامير ملحم . وفي
ذلك يقول الشدياق : « سنة ١٦٩٧ لما توفي الامير احمد المعني
وانقطعت به السلالة المعنية اجتمعت اكابر لبنان لينتخبوا
والياً عليهم فاتفقت آراء الاكابر جميعاً على الامير بشير ابن
الامير حسين الشهابي امير ريشيا ، لانه كان ابن اخت
الامير احمد المتوفي . فتوجهوا الى ريشيا ودعوه للولاية

فأجاب : « وأتى معهم الى دير القمر فاستقبله الناس بهز
عظيم وبايعوه الولاية على جبل لبنان »^١
وهكذا انتقلت اماره لبنان الى الشهابيين

*

قيل : ان اصراء لبنان من معين وشهابيين استأثروا
بالحكم فيه فاتحين غزاة وهم اجانب عنه
والحقيقة هي ان اللبنانيين من شعب وامراء ومقدمين
ومشايع ما اعترفوا بالامر لفخر الدين الثاني الا وهو امير
وطني ولبناني صميم كانت مضى على اسرته المغنية في
لبنان يوم بويج بالامارة ما ينيف على اربعمائة وسبعين سنة
فاصبح اللبنانيون يعدونه « على حق » واحداً منهم
وفوق ذلك فان الروابط الشخصية التي كانت بين
فخر الدين الثاني وبين اهالي كسروان والشمال كما تقدم
ساعدت الامير على توحيد الحكم في لبنان برضى اللبنانيين
واختيارهم .

وهكذا قل عن دخول الشهابيين الى لبنان ، فانهم ما
وطئوا ارض الجبل وجلسوا على سرير امارته الا بناءً على
قرار اللبنانيين ودعوتهم لهم .

وقد حصل مثل ذلك في اليونان وفي رومانيا وبلغاريا :
فالاسرة المالكة في اليونان دأمركية الاصل اول من تولى
عرش اليونان فيها الملك جورج الدانمركي سنة ١٨٦٣

والاسرة المالكة في رومانيا المانية الجنس ، واول ملك
منها الامير كارلوس ، دعي الى تولي الامارة الرومانية سنة ١٨٦٧
والاسرة المالكة في بلغاريا نمساوية الاصل ، وقد دخلها
فردينند الاول برضى الامة واختيارها سنة ١٨٨٧

فان صح ان ملوك اليونان والرومان والبلغار دخلوا
تلك البلاد غزاة فاتحين صح ان الشهابيين دخلوا لبنان
بحق الفتح ..

وقد توالى الشهابيون على لبنان ١٤٥ سنة من الامير
بشير الاول سنة ١٦٩٧ الى الامير بشير الثالث سنة ١٨٤٢

الامير حيدر (١٧٠٧ - ١٧٣٢)

لم يقتصر اللبنانيون على انتخاب اول امير شهاني بل بقيت عادة الانتخاب متبعة عندهم اثباتاً لكون الاستقلال هو حق للبلاد ولأهلها لا لاسرة حاكمة فيها، والآن لزال استقلال لبنان بانقراض المغنيين قديماً، وبابعاد الشهابيين حديثاً توفي الامير بشير الاول سنة ١٧٠٧ فاجتمع اكابر البلاد واعيانها وقرّ رأيهم على تولية «الامير حيدر» ابن الامير موسى شهاب خلفاً له، وهو ابن بنت الامير احمد المعني آخر الامراء المغنيين. وقد توجهوا الى حاصبيا فاتوا بالامير حيدر الى دير القمر وعمره ٢١ سنة، وقد اعترفت الدولة به وارسلت له خلعاً والاية.

الخطم

عملاً بحق السيادة التي كانت للدولة على لبنان كان الامير يدفع جزية عن البلاد ويطلب من الدولة ان تعترف به فكانت تفعل ذلك بواسطة احد ولائها في سوريا اخصهم والي عكا او والي صيدا، فكان الوالي يخلع على الامير فتكون

الخلة بمثابة فرمان يثبت ان الدولة اعترفت به واقترته
على الامارة اللبنانية.

وقد زعموا ان الخلة تثبت عدم استقلال لبنان وتجعله
في مصاف الولايات العثمانية كولاية دمشق وولاية
حلب وسواهما .

ولعل المرء اذا نظر الى هذه المسئلة بعين مجردة تبين

له ان ما قيل في الخلة من هذا القليل هو في غير محله

ليس من يدعي ان لبنان كان حائزاً على الاستقلال

المطلق مثل فرنسا وانكلترا مثلاً ، لا تربطه بالدولة العثمانية

علاقة ما ، بل يقر اللبنانيون قبل غيرهم ، ان لبنان على عهد

امبرائه ما كان حائزاً الا على الاستقلال الذاتي ، بمعنى ان

الامير كان وطنياً من اسرة خاصة ، وكان مدبره ومستشاروه

وطنيين ، وكل المناصب والوظائف في ايدي الوطنيين ،

فكان لبنان والحالة هذه يدير بنفسه شؤونه الداخلية من

مالية وضرائب ومحاكم واحكام وأمن عام وانظمة وقوانين

وكل ماله علاقة بادارة البلاد الداخلية لا شأن للدولة في

شيء من ذلك ، وهذا ما يعبر عنه « بالاستقلال الذاتي »
وقد تسلسلت الامارة في المعنيين منذ اوائل الجيل
السادس عشر ، ثم انتقلت منهم الى الشهابيين سنة ١٦٩٧
فتسلسلت فيهم الى سنة ١٨٤٢ ، وبقيت للوطنيين ايضاً في
عهد القائميتين حتى معاهدة سنة ١٨٦١

فاذا رجعت بالامارة الى نحر الدين الاول وجدت
للبنان اماره وطنية تثبت استقلاله الذاتي مدة تهاز
٣٥٠ سنة كان فيها كل ما في الحكومة اللبنانية وكل من فيها
وطنياً صرفاً : فاللبنانيون يديرون امورهم بانفسهم لا تسري
عليهم الخدمة العسكرية التي كان معمولاً بها في ولايات
الدولة ، ولا دخل للاجنبي في بلادهم في وجه من الوجوه ،
بخلاف ما كان جارياً على ابواب لبنان في الولايات السورية
كدمشق وعكا وحلب ، او في الولايات البلقانية كبلغاريا
ورومانيا وصربيا واليونان والجليل الاسود ، حيث كانت الدولة
تولي من تشاء من رجالها وتعزل من تشاء لا رأي الا
رايها ولا حكم الا حكمها ، فكانت تجند منهم الجيوش وتجي

الضرائب والاعشار وتتصرف في البلاد تصرف المالك في ملكه ، في حين انه لم يكن لها شيء من تلك الحقوق في لبنان ومع هذا فلم يكن لبنان حائزاً على الاستقلال التام بل كان للدولة سيادة عليه ورابطة تربطه بها خصوصاً في المسائل الخارجية اذ لم يكن للبنان معتمدون في الخارج ، كذلك في مسألة تولية الامير اذ كان لا بدّ من اعتراف الدولة به . وكان يُعبر عن تلك السيادة والرابطة بالجزية والخلعة ، ومعناها إقرار الامير بسيادة الدولة واعتراف الدولة بالامارة اللبنانية : هذا ما تعنيه معاملة « الخلعة » وهي لا تعني غير ذلك .

وقد نهج الامير حيدر على منوال جدوده المعنيين فذاد عن امتيازات لبنان جهده وسعى الى توسيعها ما استطاع مهماً بتمكين الروح الوطنية في النفوس على قاعدة « القومية اللبنانية » التي لا دخل فيها للدين والمذهب ، وقد تجسّمت تلك العصبية القومية في موقعة عين دارا الشهيرة التي حصلت في ايامه سنة ١٧١١

ففي تلك الموقعة التفّ اللبنانيون القيسيون على اختلاف
طوائفهم بلواء الامير حيدر قتّلف منهم جيش لبناني
لا يستهان به جمع بين وجهاء الدروز مثل «المقدم مراد
والمقدم عبد الله اللمعين ورجاهما» والشيخ سيد احمد
ابو عذرا» والشيخ سرحال العماد ومعهما رجال الباروك
وما يليهما» و بين اعلام الموارنة «كالشيخ خازن الخازن
الماروني شيخ كسروان ورجاله»

وقد قاتل اولئك اللبنانيون جنبا الى جنب اعداءهم
من حزب «اليمنية» وعليه محمود باشا ابوهرموش يساعده
نصوح باشا والي دمشق وبشير باشا والي صيدا بعساكرهما
الجرّارة . فلم يقف اولئك الباشوات وعساكرهم امام
الامير حيدر ورجاله الاّ بأسل وكان يوم «عين دارا» يوماً
مشهوداً ونصراً مبيناً للامير واعوانه فقبضوا على محمود باشا
وفرّ نصوح باشا وبشير باشا منهزمين . فرجع الامير حيدر
الى دير القمر تخفق فوق راسه اعلام النصر ورايات الفخار

وقد نال لبنان على عهده من العز والامستقلال شأواً
بهيداً متمشياً في الطريق التي خطها نحر الدين الكبيره وفي ذلك
يقول جودت باشا الوزير التركي في تاريخه « وشهادته لا ترد
لصدورها من رجل اقل ما يقال فيه انه غير متعصب للبنان
واستقلاله » قال : « ان الامير حيدر الشهابي حصل
في حكومة الجبل على الاستقلال التام ومن ضمنها
البقاع وكان امراء الجبل في ادارتهم الداخلية واحكامهم
مستقلين فلا يقدر احد من حكام الدولة ان يتداخل في
امورهم الداخلية . حتى ان اهل الجناية الذين كانوا يلجئون
اليهم لحوفهم من الولاة يأمنون على انفسهم » وذلك
لانه كان من الاصول المرعية عندهم وجوب صيانة من
يهرب اليهم ويحتسي بهم فكان الولاة لذلك لا يقدرون على
استرداده »^١

وسنة ١٧٣٢ توفي الامير حيدر « فحزن عليه اهل البلاد
حزناً شديداً » وظلت النساء لابسات عليه الحداد اربعين يوماً

يندبهُ في المساء والصباح . وفي أيامه انقطعت السلالة اليمينية
وبطل ذكرها وارتفع شأن القيسية واستظهر امرهم . »^١

الامير ملحم (١٧٣٢-١٧٥٤)

لم تخلُ منصة الامارة بوفاة الامير حيدر حتى جلس
عليها سديد الرأي ثبت الجنان ولده الامير ملحم الشهابي ،
فكان خير خلف لخير سلف

ان تاريخ الامير ملحم مفعم بالماثر الناطقة بكبر النفس
وعلو الهمة وشدة البطش والصولة حتى اصبح لبنان على عهده
حامي يحمي به وبات اميره مرجعاً يرجع اليه ولاة سوريا
بمهام امورهم وفي الاختلافات التي كانت تقع بينهم :

ومن حوادثه انه نبي اليه ان بني علي الصغير اصحاب
بلاد بشاره اظهروا الشماعة بموت والده الامير حيدر فخصبوا
ذبول خيولهم بالحناء سروراً ، فنهض اليهم برجاله والتقى بهم
في قرية يارون من تلك الديار فظفر بهم وكسرهم واهلك منهم

مخلقا كثيرا ثم رجع الى لبنان ومعه نصار مقدم بني الصغير
معتقلا ..

وسنة ١٧٤١ حصل نفور يذنه وبين والي دمشق
فجهز الوالي عسكريا وحضره الى البقاع قاصدا قتال الامير ،
فلما بلغ الامير ذلك جمع قومه ونهض بهم الى البقاع ايضا
فلما رأى الباشا ان لا قبل له بقتاله انهزم بعسكره فتأثره
الامير حتى ابواب دمشق .

وسنة ١٧٤٣ بدا من المتاوله الشيعية اصحاب جبل عامل
ما غير خاطر والي صيدا عليهم فكتب الباشا الى الامير ملحم
يستنهضه عليهم طالبا اليه تأديبهم ، فاجابه الامير الى سؤله
ونهض من دير القمر بمجفل جرار حتى بلغ جسر الاولى فلما
علم المتاوله بذلك ، وكان للامير في البلاد من الصولة ما كان ،
داخلهم الخوف والرعب ووجهوا رسلا الى والي صيدا
يلتمسون الصفح ، فقبل الوالي ذلك وكتب الى الامير
ينبخره حتى يعود الى بلاده .

وكان الامير على جانب عظيم من عزة النفس ، اذا

اسدى يداً فانما يسديها منه منه وكرماً لا خوفاً واضطراباً
فلما بلغه كتاب الوالي اخذ عليه في نفسه لقبوله الصالح
مع المتاوله بغير علمه ورضاه . فلم يعمل الامير براي الباشا
بل نهض في الحال بجيشه لقتال المتاوله فالتقى بهم في قرية
نصار « فخرجوا اليه بجيش عرمرم فحمل الامير بالرجال وهجم
عليم كالاسد الرئال فانكسروا وولوا الادبار فاخذ اللبنانيون
اعقابهم وغنموا أسلابهم . ثم رجع الامير بعسكره إلى
دير القمر بعز تام »

وحصل له مثل هذا النصر سنة ١٧٤٨ على اسعد باشا
والي دمشق ، على أثر تفور جرى بينهما وقد وقعت المعركة
في صحراء بر الياس حيث « اصطف الفريقان للحرب
والطعان ، وعند الظهيرة هجم الامير عليهم كالاسد فانكسر
الوالي وعسكره . فتبعهم الامير فاتكأ بهم الى ات وصلوا
الى سهل الجديدة فاهلك منهم خلقاً كثيراً وغنم عسكره بهم
ثم عاد الامير الى بلاده منتصراً فعلت همته وعظمت
هيته وسطوته »

ومن مآثره أنه عاد فضم بيروت الى لبنان وظلت
هكذا الى عهد الجزّار .

وسار الامير ملحم في السياسة الوطنية على آرائيه
تكملة لعمل الأحرار المعنيين من توحيد الحكومة على اساس
« القومية اللبنانية » التي لا علاقة لها بالطوائف

فكنت تراه يعهد بمهام اموره الى هذا او ذاك من
اللبنانيين بصرف النظر عن الدين والمذهب . ففي سنة ١٧٥٠
تطاول بنو مترك الشيعيون على بعض اقليم جزين ، فعظم ذلك
على الامير فدهمهم في جباع الخلاوة فظفر بهم واهلك منهم
ثلثمائة رجل وفرّ الباقيون فارسل في اعقابهم كتيبة من
جيشه بامرة الامير مراد اللامي الدرزي والشيخ ميلان
الحازن الماروني .

وأبلغ من ذلك انه لما مرض الامير ملحم سنة ١٧٦١
عهد بالصاية على اولاده الى الشيخ سعد الخوري صالح الماروني
غير ناظر في تقليده تلك المهمة الا الى كفاءته واخلاصه

وفي أيامه حلّ محل القيسية واليمينية «الحزب الجنبلاطي»
«الحزب اليزبكي» وأساسهما السياسة والعصية القومية ،
لا الدين والمذهب .

الامير احمد والامير منصور (١٧٥٤ — ١٧٧٠)

خلف الامير ملحم اخواه الامير احمد والامير منصور
ثم استقل الامير منصور بالأمر الى سنة ١٧٧٠ وشعر من
نفسه ضعفاً فأراد ان يعتزل الحكم ويتنازل عنه لابن اخيه
الامير يوسف ، فلم يفعل عما لاهل البلاد من ابداء الرأي
في مثل هذه الظروف احتفاظاً بامتيازاتهم ومراعاة لتقاليدهم .
فجمعهم وأخذ رأيهم وموافقتهم . وفي ذلك يقول الشدياق :
« ان الامير منصور جمع امراء البلاد واكابرها واعيانها في
نبع الباروك وخاطبهم قائلاً : «يا معشر آل لبنان من امراء
واعيان . . . اني لما مضى عليّ من الزمان قد ضعف جسمي
وضجرت نفسي ولم يبق لي اقتدار على حمل اعباء الولاية
فها انا قد خلعت نفسي عنها وسلمت مقاليدها طوعاً الى

ابن اخي الامير يوسف فكونوا له مطيعين واعلموا انه هو
الوالي عليكم اجمعين ..»^١ فرضي اهل البلاد بالأمير يوسف
وبأيعوه الولاية سنة ١٧٧٠ وابلغوا الدولة ذلك فاعترفت به .

الامير يوسف (١٧٧٠—١٧٨٨)

جلس الامير يوسف ابن الامير ملحم على منصة الامارة
البنانية واستقل له الامر فيها « من ظاهر طرابلس الى
ظاهر صيدا . »^٢ وكان مدبره الشيخ سعد الخوري الذي
كان وصياً عليه وعلى اخوته . وقد حدث في عهده قلاقل
واضطرابات في ولايات سوريا على يد الشيخ ظاهر العمر
كان لها تأثير سيء في لبنان ..

وانحس ما مني به لبنان في تلك الايام كان احمد الجزار
الذي أحسن الامير يوسف اليه فجحد الفضل وكفر بالنعمة .
فقد هرب الجزار من علي بك والي مصر وأتى الى

١ الشدياق ص ٣٨٦

٢ الشدياق ص ٣٨٧

امير لبنان يحتمي به ، فقبله الامير واكرمه وأبقاه عنده في
دير القمر اياماً ثم بعثه الى بيروت ورتب له نفقة من جمرها .
وكان الجزار يظهر للامير الامتنان العميم ويعترف له بالفضل
الجزيل حتى وثق به الامير واختار ان يجعله متسلماً من
قبله في بيروت فلم يستحسن مدبره الشيخ سعد الخوري
ذلك الراي لقلة ثقته بالجزار وخوفه من مكائده ، وكان
قد آنس منه المكر والخديعة ، فحذر الامير من عاقبة ترقية
الجزار ، فلم يشاطر الامير مدبره تلك المخاوف وعين
الجزار متسلماً على بيروت . فلم تطل المدة حتى تم ما
تنبأ به الشيخ سعد وظهر من الجزار الخروج على الامير ، فوضع
يده على بيروت ومازال يدس الدسائس ويدبر المكائد حتى
توصل الى مقام الولاية ورتبة الباشوية وانتقل على رب
نعمته الامير يوسف ايما انقلاب

ولم يخدم الحظ الامير يوسف على الجزار فرأى ان
يتنحى عن الامارة بعد ان حصل عليها منازعات بينه
وبين أخويه الامير سيد احمد والامير افندي ، وعملاً بتقاليد

البلاد فعل ما فعله عمه الأمير منصور من أخذ رأي الأمة
فيمن يخلفه على الإمارة ، فجمع هو أيضاً أكابر البلاد
سنة ١٧٨٨ وذكر لهم متاعبه وقال لهم ان يختاروا لهم
حاكماً غيره من الأمراء الشهابيين اللبنانيين فاختاروا الأمير
بشير ابن الأمير قاسم عمر وهو الملقب بالكبير ..



الفصل الثاني

الأمير بشير الثاني الكبير (١٧٨٨ — ١٨٤٠)

حملة بونابرت على سوريا . جلاء الافرنسيين .

محمد علي والامير . الحملة المصرية على سوريا

ان تاريخ الامير بشير الثاني يُعيد الى الذهن ذكر
تاريخ الامير نحر الدين الثاني لما تم من وجوه الشبه بين
الحوادث التي جرت للاميرين الكبيرين . نحر الدين عزز
مقام الامارة اللبنانية في سوريا حتى هابت سطوته حكامها
وولاتها والامير بشير نال من الجاه والسطوة ما كاد يعيد
الى لبنان مقامه على عهد نحر الدين

١ هو الامير بشير بن قاسم بن عمر بن حيدر الشهابي ولد في غزير

وطد الأمير المعني الكبير دعائم الاستقلال الداخلي في
لبنان حتى كاد يستقل به تماماً ووسع حدوده توسيعاً جعل
له ملكاً يمتد رواقه من القدس جنوباً إلى حلب شمالاً .
ولم يقصر الأمير بشير عن سلفه فيما خص الاستقلال
الداخلي ، كما أنه لم يقعد عن الاهتمام بحدود لبنان فأعاد
إليه بيروت والبقاع وضم بعلبك ووادي التيم^١
سعى نحر الدين إلى قطع كل صلة كانت تربطه بتركيا
فسافر إلى إيطاليا لعقد محادثات فيها على الدولة ، وطمح الأمير
بشير إلى الغاية نفسها فركب البحر إلى القطر المصري حيث
وجد في العزيز « محمد علي » مساعداً قوياً وحليفاً جسوراً . وقد
سهل اتفاقهما سعي كل منهما إلى الانعتاق التام من ربة
الدولة العثمانية

وكان لبنان على عهد الأميرين يتمتع بالراحة التامة
والامن الوافر حتى أصبح لبنان مضرب الأمثال من هذا القبيل .
وتوحيد الحكومة الذي تم على يد فخر الدين قد

وطدَّ الأميرُ بشير دعامته وعزَّزَ أركانه حتى لم يبقَ في البلاد
أمرٌ له لحاكمٍ سواه

هذا والروح الوطنية المجرّدة قائمة في البلاد على أساس
« القومية اللبنانية » بصرف النظر عن الأديان والمذاهب
حتى أن اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم حاربوا جميعهم
جنباً إلى جنب على عهد الأميرين غير ناظرين إلا إلى
المصلحة القومية .

ولم يعرف لبنان أهوال الحروب الداخلية والفتن الأهلية
حتى لعبت به أيدي الدسائس فبثوا في صدور أهليه روح
التعصب للدين والمذهب ، ومن ثمَّ فقدَ لبنانُ عزّه وقوته
ولولا أن تداركته العناية لضاع القليلُ مما أُبقت عليه تلك
الحن الطائفية من الاستقلال الداخلي :

إن في تلك العبر التاريخية لأمثولة حية لعقلاء
اللبنانيين تهيب بهم إلى الرجوع بالبلاد إلى عهد الأجداد
نابذين الفوارق الدينية ، لتعودَ إلى لبنان وحدةً حكومته
قائمةً على دعامة « القومية اللبنانية » لا على أساس العصبية

الطائفية^١ وهي بدعة ضعفت قواعد الاستقلال في لبنان

*

حكم الأمير بشير الثاني في لبنان زهاء نصف قرن نال فيه من العز شأواً بعيداً. إلا أنه تخلل تلك المدة^٢ حتى سنة ١٨٢٣^٣ كثير من المنازعات المشؤومة بينه وبين ذويه من الأصراء الشهابيين : الأمير يوسف^٤ ثم الأميرين حيدر وقعدان^٥ ثم أولاد الأمير يوسف وهم حسين وسعد الدين وسليم^٦ ثم الأمير عباس اسعد^٧ ثم الأمير سلمان سيد احمد^٨ ثم الأميرين حسن علي وسليمان سيد احمد^٩ فتداولوا الحكم في البلاد مدة حتى استقر أخيراً للأمير بشير. وقد كانت للسياسة التركية المعهودة ولدسائس عمالها يد^{١٠} كبيرة في ذلك^{١١}

١ حيدر بن ملحم بن حيدر . قعدان بن محمد بن ملحم بن حيدر . عباس بن اسعد بن يونس بن حيدر . سلمان بن سيد احمد بن ملحم بن حيدر . حسن بن علي بن حيدر .

٢ ان منازعات الأصراء في ذلك العهد اشبه شيء بالحروب التي وقعت في كثير من البلدان بين الملك والمطالبين بالعرش من ذوي قرابة : فقد حصل مثل ذلك في انكلترا في الجيل السابع عشر وفي اسبانيا سنة ١٨٧٥ . وكانت اشد

وقد بلغ من سطوة الأمير في سوريا انه أصبح صاحب الكلمة النافذة بين ولايتها والمرجع الذي يرجعون اليه في ملهماتهم. وكان اذا حدثت مشاكل وثورات في البلاد وطلب منه تفريجها وقمعها أغنت هيئته وسطوة جيشه اللبناني عن الحرب والقتال :

من ذلك ان الأمير عبد الله بن مسعود الوهابي التميمي قدم سنة ١٨١٠ من الحجاز الى حوران غازياً فتصدى له يوسف باشا والي دمشق وكتب في الامر الى سليمان باشا والي عكا وقد استكبر الواليان قوة الوهابي فاستنجد والي عكا بالامير

فلحق الأمير طلبه وقام من دير القمر بخمسة عشر الف من رجال البلاد ونزل الى جزين ومنها الى صرح عيون

القلاقل من هذا القبيل في فرنسا بين المطالبين بالامبراطورية والمطالبين بالملكية مما حمل حكومة الجمهورية على سن شرعة النبي في ١١ حزيران سنة ١٨٨٦ وهي تناول جميع الامراء المطالبين بالعرش سواء كانوا من الامبراطوريين او من الملكيين حتى ان الحكومة الافرنسية اضطرت في اوائل هذه الحرب الى منع الدوق دورليان المطالب بالملكية من التطوع في الجيش الافرنسي .

فلاقته عساكر الوالي الى خان المنى ضارين قدامه بالطبول
والزمر ومطلقين البارود حتى وصل الى جانب طبريا ونزل
في الخيام التي ضربت له وكانت نحو اربعمائة خيمة . واذ علم
الوهايون بذلك رجعوا عن تلك الديار خاسرين . . .
وعلى اثر ذلك اسر سليمان باشا المذكور الى الامير انه أتاه
فرمان الولاية علي دمشق ويخاف ان واليها يوسف باشا
لا يسلمها طوعاً ، وهو كثير المال والرجال ، فان رضي
الامير ان ينجده علي والي دمشق سار اليها ، والا ردّ الفرمان
الى الدولة . فوعده الامير بالمساعدة وفعلاً ساروا الى دمشق
حتى اذا بلغوها حضر اليهما وفد من اعيانها ، فقال لهم
الامير : « خير لكم ان تسلموا لسليمان باشا ، والا فسا جلب
عليكم عساكر مثل قطع الغمام ولا احوّل حتى اسلمه المدينة
ولو خراباً ، فان قبلتم نصيحتي فاطردوا يوسف باشا من عندهم
ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . ولما رأى الدماشقة توارد
عساكر لبنان اضطربوا وطلبوا المهلة ثلاثة ايام . وعلى أثرها

أبي والي دمشق التسليم فخار بهُ الامير وسليمان باشا فكسراه
ودخل الامير وسليمان باشا دمشق ظافرين فالتقاها الدماشقه
بالتعظيم والاحبال.

وسنة ١٨٣٠ طلب الوزير عبد الله باشا والي عكا
معوونة الامير لفتح قلعة سانور تاديباً للنايلسين وكانوا قد
شقوا عصا الطاعة وكان عبد الله باشا صديقاً للامير. فأحب
الامير ان يساعدته فعباً جيشاً لبنانياً ونهض بهم من
الاولى الى عكا وأبقى ولده الامير امين في لبنان. فالتقاء الوزير
بالموسيقى والعساكر اجلالاً وتعظيماً ثم سار الامير بجيشه
وضرب الحصار على القلعة فوق الرعب في قلوب
النايلسين وبدأوا يسلمون له فئةً فئةً

اما الوزير فاشتد ساعده بالبنانيين فاستدعى مشايخ
نابلوس الذين كانوا عنده في عكا وأخذ يتهددهم قائلاً لهم:
« اما تعلمون ان رجال الامير اللبنانيين مشهورون بالشجاعة
والبطش واميرهم هذا ماسار في مهمة الا وايده الله فيها

ونصره على الاعداء .. اما سمعتم في قرية عرطوز كيف
شنت عساكر يوسف باشا الكردي والي دمشق ، وكيف ظفر
بعساكر درويش باشا في ريشيا وهزمهم الى دمشق ، وكيف
ظفر في واقعة المزة ، وكيف شنت شمل عساكر المختارة . فلما
سمع المشايخ كلامه ارتعدوا وجعلوا يعتذرون اليه قائلين :
ان ما فعله اصحابنا في نابلس لم يكن بعلمنا اصلاً .. »

ثم عادوا الى المدينة وتخابروا بامر الصلح ولم يلبثوا
ان سلموا القلعة .. فكتب الوزير الى الامير امين يديره بفتح
القلعة وهدمها « ويخبره ان ذلك من همة الامير بشير والده »
الى غير ذلك مما يطول شرحه ويثبت ما كان للبنان من
الاستقلال في سوريا ومن السطوة بين حكامها

ومما يروى عن ابناء الامير ونخوته انه اجتمع يوماً
بشريف باشا احد وزراء الدولة فسأله الباشا متعجباً : من اين
إمارتك ؟ فاجابه الامير : إمارتي من سيفي هذا فاغتاظ

شريف باشا ولم يجب^١

ولم يكتفِ الامير بما ناله من الاستقلال الداخلي بل
بات يعلل النفس بتحقيق الغاية الوطنية الكبرى من نزع
السيادة العثمانية عن البلاد. ولم تخف نوايا الامير ومطامحه
على من جعلت لهم الظروف علاقةً ببلبات^٢ منهم قائد
عصره ومهجرة زمانه بونايرت

٢ حملة بونايرت على سوريا

خرج ذلك القائد من احشاء الثورة الكبرى صغيراً ثم
طغى عليها تيار بطشه فأغرقها في بحر قوته ومجده وكاد
يتملك العالم لولا ان الطبيعة والكوائن غالبته فغلبته
سير على مصر حملته المشهورة فظفر بجيشها ومماليكها
« فأطلت من الاهرام اربعون جيلاً تعجب به وبابطاله ». .
وبعد تدويخ مصر زحف على سوريا فتساقطت امامه

١ الشدياق ص ٥٧٧

٢ Mémoires de Napoléon T. II p. 175 & s.

قلاعها الواحدة تلو الأخرى حتى وصل الى اسوار عكا
فعانده فيها القدر فلم يُتاح له ان يفتحها « فيغير وجه العالم »
لم يكن بونابرت يجهل ما كان بين فرنسا ولبنان من
الصلات وما في قلوب اللبنانيين من المنزلة والمحبة للفرنسيين ،
كما انه كان يعلم ما كان عليه لبنان من القوة والمنعة !
ولم يفت بونابرت من جهة اخرى ، ان الامير بشير
وقومه كانوا يسعون الى توسيع حدودهم ويطمحون الى نزع
ميادة الدولة عنهم ، وان بين الامير والجزار ضغائن لا ينساها
الامير خصوصاً بعد اغتصاب الجزار مدينة بيروت ، غدرًا ولؤمًا .
فلما وصل بونابرت الى ابواب عكا بادر الى
مخاطبة الامير بشير كما تخبر البلاد المستقلة ، فأنفذ اليه مع
« الكولونل سبستيانى »^٢ كتاباً ودياً بتاريخ ٢٠ مارس
سنة ١٧٩٩ يخبره فيه بقدومه ويبلغه اعتماده على مساعدته

١ ورد في تاريخ الدولة العثمانية للفيكونت دي لاجونكيار ج ١ ص ٣٢٣
ان لبنان كان بإمكانه يومئذ تجريد اربعين الف مقاتل
٢ مذكرات عن سوريا : لشاهد عيان ص ٩٤

واعداً اياه بانالته مبتغاه من توسيع حدود لبنان وردّ بيروت
اليه مع مدنٍ اخرى تلزم لتجارته . وختم بونابرت كتابه
بقوله : « واودّ انك في اسرع ما يمكن تأتي انت او
ترسل من قبلك من تعتمد له ليقابلني هنا امام عكا حتى
تتخذ الاحتياطات اللازمة للقضاء على العدو المشترك »^١
ولو لم يسمع الامير الاّ داعي ميوله ولو لم يُصنخ الاّ
الى صوت قومه ونزعة عواطفهم لبادر الى معسكر بونابرت
ولتألب اليه ابطالُ اللبنانيين نجدةً للجيش الافرنسي كما
فعل اجدادهم من قبلهم يوم هبطوا من جبالهم ينيفون
على ٢٥ الف مقاتل باصرة الامير سمعان نجدةً للملك
لويس التاسع واتوه في ذلك المكان نفسه تحت اسوار عكا.^٢
الا ان الامير رأى نفسه مضطراً الى عدم الاندفاع
والتسرع لعلمه ان قلعة عكا حصن منيع قد يتعذر على
القائد الفتى فتحه رغم قدرته وبسالة جيشه .

١ البارون دي نستا : مجموعة المعاهدات الدولية ج ٢

٢ راجع ص ٦٠

ولعله أخذ على بونابرت انه لم يعدده بالاستقلال التام فلم ير ان يقامراً بمركزه ، وغاية ما قد يناله في حالة الانتصار على الدولة ، هو ان يدل سيادتها بسيادة فرنسا عليه ، فيسدّ اذ ذاك في وجهه باب الامل بالوصول يوماً الى الاستقلال المطلق وفرنسا على ما هي عليه من القوة ، في حين ان باب الرجاء يظل مفتوحاً امامه على مصراعيه اذا بقي الامر بينه وبين تركيا وعلامات الهرم والانحلال بادية عليها لكل ذي بصيرة .

ورأى من جهة اخرى ان المراكب الانكليزية تملأ البحر وهي تمدّ القلعة بالميرة والذخيرة وتضرب بمدافعها الجيش الافرنسي المربط امام عكا ، وأن للاميرال الانكليزي سميت سلطاناً على البحر لا ينازعه فيه منازع

فأيقن الامير والحالة هذه انه لو أنجد بونابرت ولم ينسجم له النصر فالجيش الافرنسي يعود من حيث أتى وتدور الدائرة على لبنان واستقلاله . وهذا ما حصل فعلاً للامير بشير نفسه بعد اربعين سنة من ذلك التاريخ حين خاطر بقوته وبامارته

متحداً مع محمد علي وفرنسا على الدولة. فقد أرغم يومئذٍ محمد علي على ترك سوريا وتركها، وأولهم الأمير كما أهملته فرنسا، فكانت النتيجة أن فرنسا لم تنل بضر ولم تصب بمكروه، وظلّ محمد علي سريراً مصر، إلا أن الدائرة دارت على الأمير بشير وحده نفلع عن الامارة وانهار بعده صرح الاستقلال في لبنان

وقد ادرك بونابرت حرج موقف الأمير فاكتفى منه بملازمة الحياد وبعدم الميل عليه مع الجزائر، وإثباتاً لعذره له في حياده اهدى إليه بندقية ثمينة عربون المودة والصداقة وكان الجزائر في الوقت نفسه يرسل الأمير ويستحثه على النهوض بمجيشه لإنجاده، محاولاً اقناعه تارة بالوعد وطوراً بالوعيد، فلم يغتر الأمير بوعدده ولم يعاباً بوعيده، فأبى مساعدته بأي نوع كان. فوجد عليه الجزائر طول حياته، فلقى لبنان من جراء ذلك ويلات ومحنًا شديدة لا محل لذكرها

وقد ظلّ الأمير يرقب مجرى الامور عاطفاً كل العطف

على جيش بونابرت وباذلاً له ما استطاع من المساعدات.
ومما يؤثر عن اللبنانيين في هذا الصدد ان قافلة كانت
سائرة على طريق عكا تحمل من بكفيا خمراً الى الجيش
الافرنسي فقطعت رجالُ الجزار عليها الطريق وبلغ الخبر
اللبنانيين فهبوا الى السهل مبادرين ونكلوا برجال الجزار
وحرقوا قراهم^١

بمعهم الفرنسيين عمر سوريا

كانت الثورة الافرنسية قد نشرت مبادئها الحرة في
العالم فزعزعت العروش وهاجت في الامم عاطفة الاستقلال
واوجدت نزوعاً الى تفكيك قيود الظلم وتكسير اغلال
العبودية . وقد ساعد على نشر تلك المبادئ في تركيا ضعفُ
الدولة وانحطاطُ قوتها ، فأخذ عقدُ ذلك الملك الشاسع
ينفرط حبة حبة : فانتزع محمد علي مصرَ من يد السلطان

سليم الثالث (١٨٠٥) وثار الوهابيون في الغربية ثورتهم المشهورة سنة ١٨١٣ وكانت نيران الثورة تشتعل في صربيا،
بينما دعاة الاستقلال في بلاد اليونان امثال « ايسيلتي »
و « كاناريس » و « كوندوريوتيس » يستنفرون قومهم على
غزائهم الاتراك سعياً الى الانعتاق من ربة الفاتحين .
تلك كانت احوال الشعوب في تركيا من توتر في
الأعصاب و غليان في الصدور في الوقت الذي تلا جلاء
الحملة الافرنسية عن عكا وسوريا

وكان الامير بشير في تلك الاثناء ، يواصل مساعيه
الوطنية رغم مناوءات الجزار له . وقد آتته الظروف فتمكن
بدهائه وحسن سياسته من حمل الدولة على الاعتراف له
بسلطان يمتد رواقه على جبل لبنان ووادي التيم وبلاد
بعلبك و بلاد البقاع و بلاد المتاوله . وقد نال من وزير
الدولة يوسف ضياء باشا وعداً صريحاً بان تلك البلاد تبقى
دائماً ضمن امارته ولا يكون للوزراء تسلط عليه .

وقد قضى الأمير كل مدة حكمه وهو لا يعرف للتعصب
الديني معنى فكان مدبروه واعوانه واخصاؤه وحاشيته من
كل الطوائف على السواء تكفيه منهم الكفاءة واللياقة . كما
كان الامر على عهد نحر الدين الكبير .

ومما يذكر له في هذا الصدد ان دروز الجبل الأعلى
قرب حلب استغاثوا به سنة ١٨١١ فاحضر منهم عائلات
كثيرة الى لبنان واسكنهم فيه وأغدق عليهم . وفي ذلك
يقول سيادة الدبس : « سنة ١٨١١ أرسل دروز الجبل الأعلى
يستجدون الأمير بشير على اعدائهم فارسل اليهم فارس
الشدياق بجماعة » وارسل الشيخ بشير جنلاط رجلا من
الدروز اسمه حسون بدر فحضر معهم الى لبنان اربعمائة
عائلة من الدروز وانعم الأمير عليهم بمئة الف قرش واسكنهم
بين الدروز في لبنان »

وكان له ميل الى الادب وعطف خاص على
الادباء فجعل في خدمته المعلم بطرس كرامه الذي يصح

ات يدعى «شاعر الأمير»

ومن مآثره انه بنى جسر نهر الكلب وكان قد تهدم ،
وبنى جسراً على نهر الصفاء وجسراً على نهر الدامور .

ومما خلد ذكره سراي بيت الدين وماؤها : فقد شيد
السراي ايةً في الفخامة والاتقان ، فعدت على حقٍ معجزةً
ذلك الزمان . وقد أفاض في وصفها المسيودي لاصرتين في
رحلته الى الشرق والكولونل تشرشل في كتابه عن
جبل لبنان .^١

وقد شرت السراي باسم الأمير كما عرفت فرسائل
باسم لويس الرابع عشر . وقد كانت السراي بما فيها من
خيرٍ وسعةٍ ضيافةٍ وبمن فيها من جنودٍ واعوانٍ وكتبةٍ وخدمٍ
وعبيدٍ ، تحاكي قصور الملوك ابهةً وجلالاً ، حتى اذا تمثلتها
وقد جلس الأمير في قاعتها تحفٌ به اعيان البلاد وشاعره
ينشد بين يديه القصائد ، لدى كل مأثرة او موقعة ، مرّ في

١ لاصرتين : رحلته الى الشرق ج ١ ص ١٨٧

تشرشل : ج ٣ ص ٢٦٣

خاطرك ذكر عهد الخلفاء العباسيين في بغداد .

ولم يكن في بيت الدين ماء كافٍ ، فلم يصعب على
همة الامير ان يجلبه من مسافة شاسعة بعد غناء دام ثلاث
سنوات ، لبعده المسافة ووعورة المسالك ووقوف الشغل في فصل
الشتاء ، فقد عمله في ذلك العهد « فتوحاً عظيماً » . وفي ذلك
يقول صاحب الفرر : « انه كان في دار الامير من الاعوان
المقيمين ببابه نحو ٣٠٠٠ رجل ، عدا الخيل والبغال ونظائرهما .
فلم يكن الماء يكفي هؤلاء الشارين فضلاً عن غيرهم من
زائر وطارق وذوي حاجة . فكلف الامير رجلاً اسمه خليل
عطيه ان ينظر اذا كان جرّ المياه ممكناً . فوجد خليل عطيه
الماء على مسافة ثلاث ساعات ، في عين زحلتا من ينبوع يقال
له ينبوع القاع بجانب نهر الصفا ، فعرض للأمر فأمر الامير
بجرّ المياه وبوشر العمل حالاً . وكانت جميع اهالي البلاد
تحضر كل سنة يومين تعمل في هذه القناة بغير اجرة اكراماً
للامير . وظل الشغل فيها ٣٢ شهراً تماماً حتى وصلت المياه
الى السراي . وكان ذلك فتوحاً عظيماً لم يقدر عليه احد من

أسلافه لبعده المسافة وعسر المكاتب . وقد اتفق على ذلك ما ينيف على المائتي ألف درهم . »

وقد أثار نجاح الأمير وعلو مكاتبه حقد ولاية سوريا وحسدكم ، فباتوا يناوئونه ويقتسمون كل فرصة لاثارة الفتن في لبنان وتأييد الأحزاب وبذر بذور التفريق والشقاق ، فنجحوا في مهمتهم فكان ما كان من المنازعات والقلاقل والقتال بين الأمير بشير وذويه من الأصرء المطالبين بالحكم ، وبينه وبين الشيخ بشير جنبلاط ، مما أدى الى مظالم واضطهادات لا تخلو منها امثال هذه الحوادث ، فكان ذلك سبباً في تأخر البلاد واضعافها ، وهو غاية ما كانت تسعى اليه تركيا وولاتها في سوريا

ولم يكتفوا بإيجاد القلاقل في لبنان بل اخذوا يسعون بالامير بشير الى الدولة متخذين ما بلغه من الجاه وبسطة الملك سبباً في اثاره هواجسها حتى تمكنوا من بلوغ غايتهم فأضمرت الدولة الشر للامير كما كانت أضمرته

لفخر الدين من قبله يوم شعرت بازدياد قوته وتعاظم شأنه .
فلم يخف على الامير انقلاب الدولة عليه ورغبتها في الايقاع به
فراى من الحكمة ان يسعى ، كما سعى فخر الدين قبله ، الى
ايجاد حليف يعضده فلم يلق اقرب اليه من محمد علي عزيز
مصر . فسافر الامير الى القطر المصري سنة ١٨٢٢ ومعه
ولداه الاميران خليل وامين و٩٤ رجلاً من خواصه وحاشيته

محمد علي والامير

رجلان ملا اسمهما في مصر وسوريا تاريخ النصف
الاول من القرن التاسع عشر : ذلك الباني الاصل عصامي ،
طمح الى المجد فانتزع مصر من يد صاحبها وأقام فيها سريراً
ملكه على اتقاض عرش سلطانها . ساعدته « القوة » فاعترف
له بالملك وبحق الارث لابنائيه .

وهذا لبناني كريم وامير جليل يرجع مجد أحسابه الى
قبل الاسلام . لم يوجد الامارة اللبنانية من العدم ولم ينتزعها
من يد أحد ، بل تابع بجلوسه على منصتها سلسلة امراء

كرام وطفوا دعائهما ووجدوا حكومتها . الا ان « القوة » لم
تساعد الامير كما ساعدت « محمد علي » فكان ذلك سبباً
كافياً لخلعه وامتهانه ، لم تشفع به امارته وحسبه وجلاله
شيخوخته ومقام بلاده .

ولعل في المبادئ الشريفة التي أنتجتها هذه الحرب
ضماناً لسيادة الحق ، لانه حق ، بصرف النظر عما يكون
في خدمته من قوة تؤيده . . . اذ ذاك يطلق لبنان من قيوده
ويعترف للبنانيين بكيانهم وحقوقهم

كانت شهرة الامير قد سبقته الى بلاد العزيز فلما بلغ
القطر المصري أحسن محمد علي استقباله وأكرم وفادته وقال
له : « انه لم يدخل على مصر اعز منك »^١ وقد وضع في
خدمته ما شاء له الكرم من المال والرجال والخيول والجياد
اجلالاً لمقام ضيفه الكريم

وقد كان لمحمد علي مطامع بسوريا ورغبة بضمها الى
مصر فكان يهمة كثيراً ان يحالف رجلاً في سوريا له ما

للأمير من القوة والسطوة

وقد كان لهما محادثات طويلة في هذا الشأن أدت
بهما الى الاتفاق على ان ينجد الأمير الجيش المصري في
حملة ، ويُقرَّ محمد علي الأمير على امارته في لبنان
وقد ذكر صاحب الغرر شيئاً من ذلك قال :

« بعد بضعة ايام حضر العزيز من شبرا الى القلعة
فاستدعى اليه جميع العلماء وقواد الجند وأمر باحضار الأمير
فحضر واستقبله العزيز بكل ترحاب وأمر له بالجلوس وشرب
القهوة واخذ يلاطفه بالحديث ، ثم صرف الحاضرين وأمر ببقاء
الأمير وأسرَّ اليه جميع ما يرغب منه من الخدمة في جبل
لبنان عند الحاجة لانه كان عازماً على تملك بلاد الشام
بالسيف . »

وكان لابد للعزيز قبل اتمام غزوه من اصلاح ذات
البين بين الدولة والأمير من جهة ، وبينها وبين عبد الله باشا
والي عكا صديق الأمير من جهة اخرى ، حتى اذا تم ذلك

عاد الأمير الى لبنان لا ينازعه في الامارة منازع . فاهتم
محمد علي بالامر لدى الباب العالي حتى تمّ له ما أراد

فلما بلغ الخبر الأمير استأذن بالسفر فاجابه العزيز اني
اريد بقاءك مدة عندي لانك بمنزلة ابني ابراهيم وكل ما
فعلته نحو عبد الله باشا من الجميل فهو لاجل خاطرك . فشكر
له الأمير تلافئه وودعه وسافر بالعز والاقبال ، وقد مرّ في
طريقه على عكا ، فاستقبله عبد الله باشا كما تستقبل الملوك
نخرج الى لقائه باكابر دولته والمدينة برهيج عظيم واطلقت
له المدافع . «

وبعد بضعة ايام قضائها الأمير في ضيافة عبد الله باشا
عاد الى لبنان واستلم الحكم فيه على اشدّ ما كان عليه من
العز والسطوة .

الحملة المصرية على سوريا

سنة ١٨٣١ اغتتم محمد علي اول فرصة عرضت له ،

فتشبت بها لاتمام نواياه فجهز جيشاً ضخماً وارسله لفتح سوريا
بأمره ولده ابراهيم باشا

وبناءً على الاتفاق الذي عقد بين محمد علي والامير
أنجد الامير الجيش المصري برجاله ، فخارب اللبنانيون
عساكر الدولة حرب الابطال وقد كان لهم يدٌ جلى في كثير
من انتصارات ابراهيم باشا ، كما شهد بذلك قنصل الروسية
فيما بعد .^١

وقد ظل الامير في ذلك العهد كما كان قبله ، عزيز
السلطان واسع السطوة كما يتبين ذلك مما كتبه عنه المسيو
دي لامرتين في كتاب رحلته الى الشرق^٢

١ انظر كلامه فيما يلي ص ١٨١

٢ زار لامرتين الامير في سراياه سنة ١٨٣٢ وقص ذلك في كتاب
رحلته المذكور حيث جاء ما ترجمة بعضه مملخصاً :

قصدا دير القمر (بيت الدين) حيث سراي الامير بشير حاكم جبل لبنان
بعد ان انتهينا من الغداء ارسل الامير الينا يقول انه بانتظارنا . فدخلنا باحة
فسيحة تزينا فسقيات ، وشرنا في رواق قامت على جانبه اعمدة عالية مزكزة
الى الارض تحمل سقف السراي .

وكان بملا نصف القاعة كتبة يلبسون « الغنابيز » الطويلة وفي زفار كل
منهم دواة مذهبة يشكونها فيه مثل الخنجر ، وبعض من ابناء البلاد لابسون

ولم يقتصر حكم الأمير في عهد المصريين على لبنان والبقاع بل تعداه الى ايلة صيدا ، فقد جاء في الفرر الحسان ص ١٠٢٢ عن حوادث سنة ١٨٣١ ما حكايته : « وفي اثناء ذلك كتب العزيز الى ولده ابراهيم باشا ان يفوض الى الأمير معاطاة احكام ايلة صيدا وان يكون تعيين جمع المسلمين واصحاب المقاطعات . »

الآن ان ابراهيم باشا بعد ان استتب له الامر في سوريا ، لم يحسن معاملة اللبنانيين كما كانوا يأملون ، ولعله خفي عليه صحة موقفهم من انهم شعبٌ حيٌّ ما حاربوا معه جيوش الدولة على سبيل الطاعة العمياء للامير بشير ، بل سعيًا الى غايةٍ وضعوها نصب اعينهم ألا وهي نيل الحرية المطلقة

ثياباً فاخرة وحاملين اسلحة صقيلة ، وكان نفر من العبيد يرقبون اوامر سيدهم وهنا وهناك بعض من الضباط المصريين . وكان النصف الثاني من القاعة أعلى قليلا من القسم الاول وعلى دائره ديوان من الخمل الاحمر الفاخر ، وكان الامير متربعاً في زاوية الديوان

وهو شيخ جميل الطلعة ذو عين براقية ، تلوح عليه سماء الراحة والنشاط ، ذو لحية وخطها الشيب مسترلة على صدره ، وكان مرتدياً « غنباراً » ابيض

ولما رأى اللبنانيون ان آمالهم بالدولة المصرية لم تتحقق ،
وانهم ما خرجوا من سيادة الاتراك الا ليقفوا تحت سيادة
اخرى ، هاجت في صدورهم حمية الآباء والجدود فهبوا غاضبين
لحريتهم ، ثأرين لشهداءهم الذين قتلوا عبثاً في نجدتهم لعمساكر
المصريين

ومما زاد في نفورهم ان ابراهيم باشا اراد ان ينزع
السلاح منهم ، وهو امر مخالف لتقاليد البلاد وعادات

يشده زئار من الكشمير وهو يحمل فيه خنجراً كبيراً ظهر مقبضه بين ثنايا
الفناز ، يزينه قبضة مرصعة بالحجارة الكريمة وهي بحجم البرتقالة
فابتدناه السلام على الطريقة المتبعة في البلاد بأن رقمنا يدينا الى جيبتنا ثم
وضعتها على جهة القلب . فرد علينا السلام بأدب وابتسامة و اشار علينا ان
نقترب ونجلس بجانبه على الديوان . وكان ثمة مترجم رآكم بيننا وبينه .
فابتدأت الحديث مظهراً ارتياحي الى زيارة تلك البلاد التي كان يحكمها بحزم
وكفاءة عظيمين . ومما قلته له ان وجودي هنالك هو أبلغ مدح لحسن
ادارته ، فان ما يجده المسافر من أمن في الطريق وغنى في الزراعة ونظام وسلام
في المدن ، لا أكبر وشاهد على قدرة الامير وحكمته ، فشكرني واخذ يطرح علي
اسئلة شتى فيما يخص احوال اوربا ، خصوصاً ما كان له علاقة منها بسياسة اوربا
في حرب الدولة ومصر ، مما أثبت لي اهتمام الامير الزائد بتلك المسئلة ودلني
على معارفه وفهمه للامور ، مما قد لا نجد مثله بين امراء الشرق .
ثم قدموا لنا القهوة والفلون سهاراً وظال بنا الحديث ساعة من الزمن
ولقد راعني ما وجدته في ذلك الشيخ من الحكمة والفهم والهيبة والجلال .

اهلها، فأبوا الامتثال للأمر، فتمكن ابراهيم باشا من
نزع سلاح السوريين « لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين »^١
فكان ذلك من العوامل التي وسعت شقة الخلاف بين
المصريين واللبنانيين

وفي تلك الاثناء كان المستر « ريشارد وود » مندوب
الحكومة الانكليزية في سوريا، فشرع بغليان الافكار وعرف
ما يريد اللبنانيون فوعدهم باسم حكومته ان اوربا تعترف
لهم رسمياً بامتيازات لبنان وتقرهم عليها كلها اذا هم ساعدوا
على طرد المصريين. وقد ذكر ذلك الفيكونت دي لاجونكيار
في تاريخه عن الدولة العثمانية وأثبتته مطولاً المسيو
« دي ملفيل » في خطابه في مجلس النواب في جلسة
١٥ حزيران سنة ١٨٤٦.^٢ وقرّ به المستر « وود » نفسه في
كتاب أرسله الى نجيب باشا في ٣٠ تشرين الاول

١ جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص ٢٤٣

٢ دي لاجونكيار: تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ٤٣١

مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان. تعريب

فليب وفريد الحازن ج ١ عد ١٢٩

سنة ١٨٤١ حيث جاء « انه وعدم بدوام تمتعهم التام بحريتهم الشخصية وبحقوقهم وامتيازاتهم القديمة مكافأة لهم على خدماتهم العسكرية »^١

فلم يحجم اللبنانيون والحالة هذه عن القبول بمساعدة تركيا فاجتمع الدروز والنصارى واضرموا نار الثورة في البلاد واقسموا انهم يحاربون المصريين كما حاربوا الاتراك في سبيل حرية بلادهم وكيان أممتهم . وقد اعلنوا انهم يقومون كما قام رجال الثورة الافرنسية الكبرى ، ولا يرجعون حتى ينالوا ما ناله اليونان حديثاً من تكسير القيود وبلوغ الاستقلال.^٢ واليك شيئاً من المستندات الرسمية التي تثبت ما تقدم :

في ٨ حزيران سنة ١٨٤٠ اجتمع اللبنانيون من دروز ونصارى في انطلياس ووقعوا اتفاقية جاء فيها : « انه في يوم تاريخه قد حضرنا الى ماري الياس انطلياس نحن المذكورة اسماؤنا به بوجه العموم من دروز ونصارى ومتاولة واسلام

المعروفين بجبل لبنان من كافة القرى^٦ وقسمنا يمين على مذبج
القديس المرقوم باننا لا نخون ولا نطابق بضر أحد منا
كائناً من يكون . القول واحد والراي واحد ونحن جمهور
الدروز اذا حدث منا ادنى خلل نكون بارين من دياتنا
ومقطوعين من شركة الدروز والحظوظ الخمسة وتكون نساؤنا
طالقات من السبعة مذاهب ومحترمة علينا من كافة الوجوه .
وايضاً يشهد علينا ماري الياس ويكون خصمنا . وقد أثقنا
علينا شيخاً جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل
الخازن من غوسطا . ونحن جمهور النصارى الذي يخون
منا يكون ماري الياس خصمه ولا يكون له موة على
دين المسيح . . »

وفي اليوم عينه نشر « الشوار » اللبنانيون على اخوانهم
نشرة سردوا فيها دواعي نهضتهم وثورتهم على الحكومة المصرية
واستفروهم الى القتال في سبيل استعادة حريتهم واستقلالهم .
وجاء فيها قولهم : « ان سكان لبنان رغم ما هم فيه من الانفة
وروح الاستقلال احتملوا بصبر مظالم السلطة الجائرة مراعاة

لخاطر الامير بشير الشهابي على امل ان يضمن لهم صبرهم
هذا حفظ شرفهم وحريتهم وكيانهم

«فلترقد بسلام رفات اخواننا الذين ماتوا في سبيل الحرية
فانهم ضاهوا بشجاعتهم الفرنسيين الذين عندما هددوا
بالاستئصال اذا لم يستسلموا فضلوا الموت نخاضوا غمار الوغى
وقتلوا ١٥٠ الف رجل ... وبما ان الموت ينزل بالذين
ينتظرونه جبناً في بيوتهم كما ينزل بالذين يقومون لرفع نير
الظلم عنهم، فلا تترددوا بل فلتتحد اتحاداً وثيقاً ولنهض بغير
خوف فان الاستبداد الذي يهددنا هو على وشك ان
يهدم وطننا .. ولكن على يقين تام ان الندامة المتأخرة لا
تنقذنا اذا لا سمح الله افترقنا او ترددنا لحظة طرف عن
توحيد قوانا لاستعادة حريتنا . ولكي نسلك بحزم وفقاً لما
تقتضيه ظروف كهذه مطبقين عملنا على الحكمة والرزانة
الجديرتين بشعب حر مثلنا، يجب ان نعقد اجتماعاً من الرجال
المعروفين بعلو المنزلة وسمو المدارك، ويكون قوام هذه
الجمعية خمسة رؤساء يُنتخبون باكثرية الاصوات في كل

اقتطاعة فيعقدون كلهم او بعضهم مجلساً في مكان مناسب
للاتفاق على وضع ادارة منظمة وينتقى عشرة الآف من
رجالنا البواسل لمقاومة كل الدسائس والحركات العدائية
المسددة نحو حريتنا ولتخصص الضرائب - التي كان في نية
الحكومة استيفاؤها من الذين كانت تريد تجنيدهم لو لم ننهض
عليها - لشراء المؤن اللازمة للعشرة الآف مقاتل الذين
سيقتدون ببسالة المكايين وقد كان كل فرد منهم يحارب
عشرة . فمن كان الحق بجانبه لا يُقهر . ويقتضي ان تكون
روابط اعضاء هذا المجلس مع بعضهم متواصلة ليتسنى لنا
اتخاذ التدابير العاجلة لحماية مواطنينا المهدق بهم الخطر وانقاذاً
لأنفسنا من العبودية والظلم وقد سبق لليونان ان كانوا
احسن قدوة لنا فحصلوا على حريتهم وكان الله معينهم .
وان اهالي دير القمر هم في مقدمة من تسليح للدفاع عن دعوانا
المقدسة والعادلة ، فليسمع نداؤهم الوطني في كل الأنحاء . .
اما نحن فان عزيقتنا وطيدة لا تنزعزع : فقد أقسمنا على

استعادة استقلالنا أو نموت في هذا السبيل ٠٠٠ »^١

وقد راعت تلك الحركة الوطنية قناصل الدول فلم
يتمالكوا من الاعجاب بنهضة اللبنانيين وبنبالة اخلاقهم
وشهامتهم في الحرب :

قال المسيو باذيلي قنصل الروسية في بيروت في تقرير له
الى المسيو بوتينيف مندوب الروسية في الاستانة بتاريخ ١١
حزيران سنة ١٨٤٠ : « ان هذه الثورة خطيرة لان
اللبنانيين قد تجنبوا الاستسلام للسلب » اقتصاراً منهم على
مناهضة الحكومة دون ان يلحقوا اقل ضرر بالسكان . ولقد
رفع الثوار منذ ايام نشرة الى قناصل الدول مجاهرين باحترامهم
الاوربيين واعدين باجازه مرور المؤن اذا كانت حرققة
بتذكرة من القنصلية ٠٠ »

« وقد اعاد الثوار لقنصلية انكلترا اكياس المال المرسلة
من دمشق وقد كانت نهبت غلطاً مع اكياس الحكومة .
ورأيت اثناء تجولي في ضواحي المدينة عدة مئات من هؤلاء

الثوار تعلق وجوههم سياء العزم والسكون في حين كانت مدافع
المدينة تطلق قنابلها على رفقاءهم المحتشدين في اماكن اخرى.^١
وقد شهد القنصل المذكور ان الفضل باخضاع سوريا
سنة ١٨٣٢ كان مرجعه الى اللبنانيين وان خروجهم على
ابراهيم باشا سيؤول الى طرد المصريين من كل انحاء سوريا^٢
قال حضرته :

« وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا في
سنة ١٨٣٢ قد جر معه خضوع كل سوريا فلا يبعد ان
ثورتهم اليوم ستؤول الى طرد المصريين نهائياً من هذه
البلاد ... »^٢

ولم يخف على محمد علي مافي تلك الثورة من الخطورة
وما يترتب عليها من العواقب الوخيمة على جيشه في سوريا^٣
فتملكه من جرائها غضب لا مزيد عليه حتى زين له اليأس
ان يحاول اباداة الثائرين على بكرة ايهم قبل مغادرة البلاد

١ مجموعة المحررات ج ١ عد ٤

٢ مجموعة المحررات ج ١ عد ٤ ص ٧

انتقاماً منهم . فعلم قنصل النمسا بنواياه فأقنعه بان لا يقدم
على شيء منها فيفقد عطف اوربا عليه .

وقد تبسط في سرد تلك الحوادث كتبة ذلك العهد
منهم المسيو هنري هان في رسائله الى جريدة اجسبورج
سنة ١٨٤٠^١

وقد تم ما تنبأ به المسيو بازيلى وتوقعه محمد علي * فغلب
ابراهيم باشا وأكره * على أثر تلك الثورة وبعد نكبات متوالية
نكبت بها جيوشه * على التخلي عن سوريا كلها

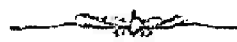
امنا الامير بشير فبات امام تلك الحوادث في مركز
دقيق حرج لعهوده مع محمد علي من جهة ولاعتقاده من جهة
اخرى ان فرنسا لا تتخلي عنهما ولا تسمح بضياع استقلال
لبنان بعد ان جرى ماجرى بمعرفتها وموافقتها . لذلك لم يصغ
الى ما عرض عليه من المواعيد الطيبة له وللبلاد فراح
ضحية وفائه واعتماده على حلفائه .

ويأت ذاك انه في ١٤ اغسطس سنة ١٨٤٠ رست

العمارة الانكليزية النمساوية العثمانية في بيروت باصرة
الكومدور السر شارل نابيير لتأييد الجيش العثماني على
ابراهيم باشا وحليفه الامير بشير. وثاني يوم وصول العمارة
ارسل السر ريشار وود كتاباً سرياً الى الامير بشير يعده^١
فيه بالمحافظة على استقلاله اذا هو تخلى عن محمد علي.^٢
وفي تلك الأثناء كتب ايضاً السر عسكر العثماني
سليم باشا الى الامير بشير يخاطبه بالتسليم وارسل له فرماناً
مع مندوب يقول له : « ان سلمت للدولة قبل مرور ثمانية
ايام تبقَ والياً كما كنتَ بل تكون الولاية لك ولذريتك
من بعدك. »^٣ فلم تسمح للامير نخوته اللبنانية بالتخلي
عن حليفه ساعة الشدة ، لاسيما وفرنسا تؤيده ، وعهد فرنسا
مقدس^٤ في لبنان . ففضل الامير ان يحفظ عهوده حتى
التضحية وهكذا كان فقد اضطرت فرنسا يومئذٍ لاسباب
لا محل لذكرها ، الى التخلي عن محمد علي واسقط الملك^٥

«لويس فيليب» حكومة الميسوتيارس الذي كان يريد ان يؤيد بالقوة محمد علي وحليفه الامير بشير، خلفته حكومة على رأسها المارشال «سولت» ووزير خارجيتها الميسو «جيزو» وهما من طالبي السلم ومريديه على أي حال .

وبعد مخاضات ومراسلات طويلة تم الاتفاق بين الدول على حفظ مركز محمد علي في مصر . . ولم تدرك الدائرة الا على لبنان وعلى اميره الشيخ رغم كل تلك الضحايا التي تحملها اللبنانيون سواء في مساعدة المصريين على فتح سوريا او مساعدة الدولة على طرد المصريين . . واضطر الامير الكبير الى التخلي عن الامارة^١



١ على اثر ذلك نزل الامير بشير الى بيروت فخبيره عزت باشا السر عسكر ان يختار داراً لاقامته ، فيها عدا بلاد فرنسا وسوريا ومصر ، فاختار جزيرة مالطه وسافر اليها

وفي سنة ١٨٤١ أرسل السلطان عبد المجيد فرماناً الى الامير بشير وخبره في الاقامة في مملكته ما عدا سوريا فقام الامير في اواخر ايلول من تلك السنة وسافر بمن معه الى اسلابول حيث توفي سنة ١٨٥٠ وعمره ٨٤ سنة .

الفصل الثالث

الامير بشير الثالث (١٨٤٠—١٨٤٢)

الحركة الاولى سنة ١٨٤١ . مصطفى باشا نوري في لبنان .

على اثر تلك الحوادث وما حصل في لبنان من اضطرابات
وحروب أدت الى إضعافه ، ظنت الدولة ان الوقت مناسب
لإلغاء امتيازات لبنان ، فبدلاً من ان تفي بوعدھا وتقرّ
اللبنانيين على استقلالهم عزمّت على إلحاق لبنان بالولايات
واقامة والٍ تركي عليه

فلما شعر اللبنانيون بمقاصد الدولة نسوا ما بينهم من

وكان للامير هيبة نادرة بقيت في البلاد مضرب مثل ، يدلك عليها احادث
الآتي :

في اليوم الثالث من قدوم الامير الى الاستانة ، أرسل رؤوف باشا الصدر
الاعظم يدعوہ الى الباب العالي وارسل له خيولا مزينة لركوبه مع اولاده .

الاختلافات واتحدوا جميعاً على الذود عن حقوق بلادهم
وقد بلغ منهم الهياج مبلغاً حمل مندوبي الدول على
تقديم النصح لتركيا بالعدول عن فكرتها، خصوصاً مندوب
الحكومة الانكليزية السر ريشارد وود . فاضطرت الدولة الى
اتباع النصح وابقاء الامارة اللبنانية على ما كانت عليه من
الاستقلال وعليها امير شهابي . فاتفقت مع الدول على تعيين
الامير بشير قاسم ملحم الشهابي^١ خلفاً للامير بشير الكبير
وأصدرت له فرماناً تاريخه ٣ ايلول سنة ١٨٤٠^٢

غير ان رضى الدولة بالمحافظة على امتيازات لبنان
وبابقاء الامارة للشهابيين لم يكن عن طيبة خاطر، فباتت

وسأل ارباب الديوان الصدر : هل نقوم للامير في السلام، فأجابهم لا
نقوم له . فلما دخل الامير نهض الصدر الاعظم اجلالا ونهض الجميع، فحياه
الصدر وأجلسه مجلس العظماء فتهنئته الجميع متعجبين مما كان . ثم استأذن
الامير وانصرف، فقال بعض كبراء الديوان للصدر الاعظم : لماذا نهضتم للامير
بعد أمركم بعدم القيام، فاجاب الصدر : ان في هذا الرجل قوة انهضتني ضد
ارادتي فاني لم أر في حياتي هيبة في رجل مثل هذا فان كل ما قيل عنه في ذلك
صدق . (الشدياق ص ٦١١ و ٦٢١ والفرر الحسان ص ١٠٥١)

١ هو الامير بشير بن قاسم بن ملحم بن حيدر

٢ مجموعة المحررات ج ١ عد ١٥

تتحين الفرص وتجرب كل الوسائل للقضاء عليها فلأت أعمالها
هذه كل تاريخ لبنان منذ سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠

فكانت من ثم فتنة سنة ١٨٤١ ومحاولة تركيا على
اثرها تعيين علي باشا حاكماً على لبنان ثم بعثة السبع
مصطفى نوري باشا الى لبنان واحتياله على خلع الامير
بشير الثالث وتعيين عمر باشا النمساوي مما أدى الى ثورة
البلاد واحتجاج الدول .

ثم بدعة القائميتين ثم فتنة سنة ١٨٤٥ وبعثة شبيب
افندي ثم الحوادث المشؤومة المعروفة « بحركة سنة الستين »

*

الحركة الاولى (سنة ١٨٤١)

رأت الدولة انه ما دام اللبنانيون متحدين رغم اختلاف
طوائفهم فلا سبيل الى إلحاقهم بالولايات فعمدت الى اثارة
عواطف التعصب بين الدروز والنصارى وما زالت بهم حتى
وقعت حوادث سنة ١٨٤١ وهي اول مرة عرف فيها
اللبنانيون المنازعات الدينية والحروب الطائفية بعد ان عاش

الدروز والنصارى في لبنان اخوان صفاء اجيالاً طوالاً ،
وقد أثبتت المكاتبات الرسمية مسؤولية تركيا في حوادث
لبنان ، وفي ايراد شيء منها كفاية .

من ذلك مذكرة المستر وود الى نجيب باشا في
٣٠ ت ١ سنة ١٨٤١ حيث جاء : « من المحقق ان
السوريين عامة أصبحوا يعتقدون ان هذه الاعمال هي من
الحكومة العثمانية ذاتها . » ثم استورد الى ذكر سبب اعتقادهم
هذا فقال : « أرى ان نزع السلاح من اهالي حاصبيا
وراشيا وزحلة في لبنان واثيلبنان هو تعدّي على حريتهم
وامتيازاتهم ومغائرهم تمام المغائرة للوعود الصريحة التي ابلغتهم
اياها باسم الحضرة الشاهانية . » الى ان قال : « ان نزع السلاح
من يد السوريين عامة امر مرغوب فيه . . . بيد انا
رأينا هذه الوسيلة مقصورة على مسيحيي لبنان واثيلبنان في
حين انه سمح لسائر أتباع الباب العالي بحفظ اسلحتهم . »^١
وجاء في نطقة اجماعية أنفذها كل من قنصل فرنسا

وبريطانيا العظمى والروسية في بيروت الى سليم باشا في
ت ٢ سنة ١٨٤٩ « انه من الثابت ان الدروز اُمدوا بذخائر
وافرة مرسلة من دمشق رغماً من تنبيه القناصل المقيمين
في هذه المدينة صاحب الدولة نجيب باشا تكرر الى وجوب
منعها . »^١

الى آخر ما هنالك من الادلة والبراهين . . . وقصد تركيا
من هذه الفتن ان تثبت صحة دعواها من ان الامراء
البنانيين عاجزون عن حكم البلاد فيتحتم فصلهم عن الامارة
وابداهم بوال تركي وادغام لبنان بالولايات

وبناء عليه قرّرت تعيين علي باشا والياً تركياً على الجبل .
وقد كانت السر ريشارد وود مسموع الكلمة لدى ولاية
سوريا فلما شعر بما تنويه الدولة علم ان تلك السياسة وخيمة
العواقب لوقوفه على حقيقة اخلاق اللبنانيين وعلمه انهم مهما
اختلفوا في مسائلهم الداخلية فهم لا يسمحون لأحد بمسّ

امتيازاتهم ، فكتب الى سليم باشا والي صيدا في ٢٨ ت ١
سنة ١٨٤١ كتاباً يحذّره فيه سوء العاقبة جاء فيه ما ترجمته :
« يجب ان تعتقد دولتكم جيداً ان الجبلين عموماً لا
يسمحون ابداً ان يحكم لبنان باشا تركي لان ذلك يُنافي
امتيازاتهم القديمة التي اعترف بها الباب العالي وأيدها
مؤخراً . ومن المحتمل كثيراً ان يمانع اللبنانيون بتنصيب
علي باشا فاذا حاربوه او طردوه من الجبل سقطت هبة
الباب العالي »^١



مصطفى باشا نوري في لبنان

رات الدولة ان تلك الطريقة لم تنجح فعمدت الى
سواها ، فأرسلت الى لبنان مصطفى باشا نوري السر عسكر
بدعوى تهديّة الحال واشارت عليه وعلى الولاة ان يلبسوا
ثياب الجمالان ويظهروا بمظهر الاشفاق على اللبنانيين ولبنان .

فوصل مصطفى باشا الى لبنان وارسل رسلاً في البلاد
لاغواء اللبنانيين بقبول ولاية الدولة عليهم مبينين لهم من
جهة ان ذلك هو الدواء الوحيد لما في الصدور من حزازات
وفي الطوائف من منازعات ، ومفوضين من جهة اخرى
بشرح الفوائد التي يجنيها لبنان من اندغامه في دولة كبيرة
عزيزة الجانب يكون لابنائهم فيها متسع لاظهار كفاءتهم
واقترارهم بدلاً من انزوائهم في جبالهم وصخورهم الجرداء ..
فلم تكن بهرجة البيان لتغرأ اولئك اللبنانيين الصميمين
ذوي النفوس الشماء والوطنية الصحيحة فلم يتخلوا قيد
شعرة عن امتيازاتهم ولم يفرطوا بشيء من حقوق بلادهم ،
مفضلين حفظ كياناتهم القومي في وطنهم اللبناني ، على كل
مناصب الدول وخبرات العالم ، عالمين ان حياتهم القومية
موقوفة على الاحتفاظ بمركز لبنان الخاص وبالوحدة اللبنانية
التاريخية^١

١ وقد دعي اللبنانيون الى مثل ذلك على اثر اعلان الدستور العثماني فكان
موقفهم سنة ١٩٠٩ كموقف ابائهم وجدودهم سنة ١٨٤١ ...

وقد ذكر الشدياق وهو شاهد عيان لتلك الحوادث
وكان له فيها شأن : « ان اللبنانيون قدّموا في احتجاجهم
هذا معروضات الى الدولة والى وكلاء الملوك الاربعة في
اسلامبول .. وان مصطفى باشا اخذ يتملقهم ليرتضوا بولاية
الدولة فأبوا .. »^١

وكانت حوادث سنة ١٨٤١ قد زعزعت ثقة الاهالي
بالامير بشير قاسم ملحم الشهابي فانغم مصطفى باشا المذكور
هذه الفرصة فاستدعى الامير اليه وكلفه السفر الى الاستانة
بدعوى التقرير عن حوادث تلك السنة المشؤومة . فسافر
الامير ، واللبنانيون غافلون عما يُراد بهم ، ومصطفى باشا
يطمأنهم ويطيب خاطرهم نفياً للريب والشكوك حتى انه
استدعى فريقاً منهم وطلب منهم ان يتفقوا على رجل يُولى
عليهم برضاهم

ولما آنس من الناس سكوناً واطمئناناً خلع عن جسمه

ثوب الحمل وفاجأ اللبنانيين بأقامة « عمر باشا » النمساوي
العثماني حاكماً على الجبل بمقتضى فرمان تاريخه ١٥ ك ٢
سنة ١٨٤٢ ٦ وارسله بعسكر الى بيت الدين



الفصل الرابع

عمر باشا في لبنان (١٥ ك ٢ سنة ١٨٤٢ — ايلول سنة ١٨٤٢)^١

لم يكد يستلم عمر باشا حكومة الجبل حتى افاق اللبنانيون من غفلتهم وفهموا ان الضربة لم تكن للامير بشير قاسم شخصياً بل بالاحرى لاستقلال البلاد. فهاجت خواطرهم وقدموا «المعارض» الى قناصل الدول محتجين على تولية حاكم اجنبي عليهم خلافاً للمعتاد من قديم الزمان . وسرت من ثم في البلاد روح الثورة فبادر القناصل الى اطلاع سفرائهم في الاستانة على واقع الحال فخبر السفراء الباب العالي تلافياً للامر قبل استفحاله :

١ عمر باشا نمساوي الاصل من كراوتيا . ولد سنة ١٨٠٦ من والدين ارتوذكسيين ثم لجأ الى البشناق حيث اعتنق الدين الاسلامي ثم دخل في الجندية العثمانية فبلغ فيها مرتبة سامية .

من ذلك ما جاء في تعليمات الميسو ستراثفورد كاتين
سفير انكلترا في الاستانة الى الميسو بيناني ترجمت السفارة
الاول بتاريخ ٩ شباط سنة ١٨٤٢ :

« اتصل بنا انت الامير بشير قاسم عزل فجأةً باصر
استبدادي ... وان السر عسكر مصطفى باشا عين باشا
مسلماً مكان الامراء عاهداً اليه بالسلطة المختصة بهم ، وهو
اليوم في دير القمر بصفة والٍ على لبنان مما لم يسبق له مثيل ،
وذلك مناقض للوعود المسجلة وخارق للامتيازات المقررة
منذ عدة قرون ... واذا ثار اهالي الجبل واضطر السر عسكر
الى استعمال القوة يزيد في غضبهم ، ويرجع انت حراجه
موقفه تجعله ينشب في قتال تكون الارجحية فيه الى خصومه
فيعرض شرف سلطانه لعار الانكسار ... »

فاضطر صارم افندي ناظر الخارجية امام هذه
الاحتجاجات ان يهدى بال السفراء فابلغهم في ١٧ اذار
سنة ١٨٤٢ « ان الباب العالي لا يتشبت بابقاء عمر باشا والياً

على لبنان وانما كان تعيينه من قبل السر عسكر مراعاة
لظروف الحال وان الباب العالي قرر ان يرسل الى لبنان
سليم بك عاهداً اليه بالوقوف على حقيقة الحال وتقديم تقرير
بذلك « ١

وكان يقصد صادم افندي من ارسال سليم بك الى
الجبيل ذر الرماد في العيون وتسكين الخواطر ، لا تغيير سياسة
الباب العالي فعلاً . فلما وصل سليم بك الى لبنان اتفق
مع مصطفى باشا على افساد الحقيقة واثبات ما يخالف الواقع
فحصلاً بالوعد والوعيد والترغيب والتهديد على عرائض وقعها
بعض الاهالي يطلبون فيها تعيين والٍ تركي عليهم والتنازل
عن امتيازاتهم وقد بلغ الامر بمصطفى باشا وسليم بك
المذكورين انهما زورا اختتاماً عديدة ليوهما ان الاغلبية في
لبنان تطلب الانضمام الى الولايات وقد ارسلت هذه
العرائض الى الباب العالي فعرف بها السفراء بطريقة غير
رسمية فاستغربوا تنازل اللبنانيين عن استقلالهم وهم قد

دافعوا عنه أبد الدهر ، كما ان صوت احتجاجهم على تعيين
عمر باشا لم يكديخفت بعد ، فلا يعقل ان ينقلب رأيهم بين
عشية وضحاها ويصبحوا وهم يطلبون تولية من احتجاجوا عليه
بالامس .

لذلك طلب السفراء من قناصلهم في بيروت ان يوافوهم
بالاخبار الصحيحة عن احوال لبنان جلاء لتلك المناقضات .
فبادر القناصل وارسل كل منهم تقريراً الى سفيره ، على غير
سابق اتفاق بينهم ، واذا بالتقارير كلها مجمعة على ان الحقيقة
هي ان اللبنانيين لا يرضون ابداً بالتنازل عن امتيازاتهم
واستقلالهم وان العرائض التي ارسلت الى الباب العالي
أخذ بعضها بالوعد والوعيد وزور منها البعض الآخر

على اثر ذلك اجتمع سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا
وبروسيا والنمسا في ٢٧ ايار سنة ١٨٤٢ عند صارم افندي
ناظر العدلية ومعه ظاهر باشا ناظر البحرية ، ولم يكن يعلم صارم
افندي بما سبق للسفراء اتخاذه من الاحتياطات للوقوف
على الحقيقة فأراد ان يسرد الحوادث على هواه ويفاجئهم

بالعرائض تأييداً لسياسة الباب العالي ومنعاً لتدخل الدول في
شؤون لبنان :

قال صارم افندي : « انه لما كانت قد حدثت
اضطرابات في جبل لبنان رأى الباب العالي من الموافق
ارسال السر عسكر مصطفى باشا الى ذلك الصوب منذ نحو
سته اشهر ووكل اليه الاشراف على حالة الشؤون واتخاذ
التدابير والتحوطات المناسبة فنقل السر عسكر الامير بشير
قاسم من منصبه وارسله الى الاستانة وولى مكانه عمر باشا
وات ممثلي الدول الخمس احتجاجاً على عدم موافقة العمل
وطلبوا ان يحسب هذا التعيين وقتياً وألحوا ايضاً بوجوب
حفظ طريقة الاحكام القديمة ونصحوا الباب العالي ان
يعيد الحكم الى الاسرة الشهابية ، وانه على اثر هذه المساعي
أبلغ هو الممثلين المشار اليهم اعتماده على ارسال مندوب
الى سوريا مفوض بالتحري عن مجرى الامور حتى بعد
عودته تتخذ طريقة الحكم الواجب وضعها في لبنان . وان
سليم بك قام بالمهمة الموكولة اليه ورفع للباب العالي بياناً

عن تتيجتها مشفوعاً بأربع عرائض موقعة من المشايخ الموارنة وغيرهم من أهالي جبل لبنان . »

فلم تحدث تصريحات صارم أفندي التأثير الذي كان ينتظره منها على السفراء بل ردّ عليه سفيراً انكثراً مفنداً زعمه ومبطلاً حجته ، قال السفير :

« ان البيانات التي أنفذت اليه من سوريا مخالفة للتي تلقتها الحكومة العثمانية . وزاد ان تلك البيانات التي عنده تثبت ان العرائض التي أرسلها مصطفى باشا استحصلت بالوعد والوعيد وان لديه ما يدعو الى الاعتقاد ان رصفاءه تلقوا من قناصل دولهم رسائل مماثلة لهذه ، فصدق سائر السفراء على قوله . »

« فاجاب ناظر الخارجية ان العرائض التي تليت في الجلسة تثبت صدق تقارير السر عسكر باشا . . . فرد ممثلو الدول الخمس اقوال ناظر الخارجية باجماع القناصل على رواية واحدة ، واوضحوا للنظار العثمانيين ان العرائض التي تليت عليهم مقصورة على توابع قليلة وانه من المشهور انها اخذت

بوسائل الارهاب والوعود ... ثم قرئ كتاب مسهب
يشتمل على تفاصيل وسائل التمليق والعنف التي التجئ اليها
لحل بعض زعماء لبنان على توقيع العرائض المذكورة وابانوا
لناظر الخارجية انه بدون الوسائل المار بياها يتعذر التصديق
ان اهالي جبل لبنان بدلوا رايهم بهذه السرعة وتاسوا عوائد
قديمة وامتيازات هم شديدو التمسك بها حتى انه من برهة
وجيزة طلبوا باجمعهم غير مرة بلهجة حازمة وبالجاح شديد
حفظها . »

ثم قرأ وكيل سفارة النمسا ملخص رسالة سمو البرنس
دي مترنيخ بتاريخ ١٧ ايار سنة ١٨٤٢ فاذا بها ترمي ايضاً
الى وجوب العودة الى طريقة الحكم القديم
ثم استأنف السفراء والنظار الكلام عن امتيازات
اللبنانيين من قديم الزمان فاورد ممثلو الدول عدة ادلة
معززة بشواهد تاريخية « ان السلاطين الاكثر بطشاً وشوكة
قد طالما راعوا في ابان عزم جانب اللبنانيين وامتيازاتهم . »^١

١ ملخص المفاوضة التي دارت بين ناظر الخارجية العثمانية وممثلي الدول

فلم يُصخُّ البابُ العالى الى نصح السفراء بل أبقي
عمر باشا والياً في لبنان فبات هيجات الخواطر يزداد يوماً
بعد يوم حتى أصبح الجبل كأنه الهشيم اليابس فلم تكد تقدح
فيه شرارة صغيرة حتى اشتعلت جوانبه واندلع لهيبها في كل
أنحاءة .

وقد كان ظهورها في كسران حيث اتهم مشايخ بيت
الدحداح بايقادها فحسبت الدولة بادی ذي بدء ان الأمر
مقتصر على افراد معدودين يمكنها كبح جماحهم بالقوة واطفاء
النار بسهولة ، فارسلت في الحال عسكرياً للقبض على الدحداحة
فقاموا من وجهه الى الشمال فطاردهم العسكر حتى جبة
بشراي ، وكان حديثهم قد سرى في البلاد وعرف اللبنانيون
سبب فرارهم ولحاق الجند بهم ، فهبَّ اهالي الشمال وفي
مقدمتهم اهل اهدن وبشري هبة الابطال غضاباً لقومهم
وحریتهم فتصدوا للعسكر وانتشبت بينهم الحرب فظفروا

بالمسكر وكسروه فولى الادبار منهزماً الى طرابلس وغنم
اهالي الشمال خيلهم واسلحتهم وامتعثهم .

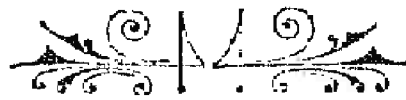
ومما يثبت ان ذلك الشعور الوطني لم يقتصر على
فريق من اللبنانيين دون فريق وعلى جهة دون اخرى
هو ان الثورة لم تنحصر في كسروان والشمال بل تعدتھا
الى سائر انحاء الجبل : فما كاد يبلغ الدروز ما فعله اهالي
جبة بشراي واهدن حتى هاجوا هم ايضاً طالبين حرب
عمر باشا

فلما رأت الدولة ان الجبل كله في هياج وان الدروز
والنصارى متحدون على خلع الحاكم التركي ، فهمت ان الامر
خطير والموقف حرج فخشيت سوء العاقبة فتلافتها بأن فصلت
عمر باشا عن لبنان في ايلول سنة ١٨٤٢ .

ولم تقتصر على ذلك بل زادت في التودد الى اللبنانيين
وفي مجاملتهم فعادت واعلنت ، تسكيناً للخواطر ، انها
تعترف بحقوق اللبنانيين بانتخاب من يشاؤون والياً عليهم
وقد ارسلت الى لبنان وكيلين من قبلها يكتبان اسماء

الذين يرشحهم اهل لبنان للامارة .^١

وهكذا انتهت ولاية عمر باشا على لبنان وهي وان لم تستمر الا بضعة أشهر غير انها كانت في الواقع فاتحة عهد جديد في حياة لبنان السياسية : فقد الجبل منذ ذلك الحين « وحدة إمارته » ونالت تركيا بعض غايتها فلم تبقى في لبنان « أسرة مالكة » . وكان ذلك آخر عهد الشهابيين بالحكم في لبنان^٢



١ الشدياق ص ٦٤٢

٢ وفي ذلك تقول العامة : « اولها بشير واخرها بشير » اشارة الى ان اول امير شهابي وولي على لبنان كان الامير بشير الاول واخرهم الامير بشير الثالث .

الباب السابع

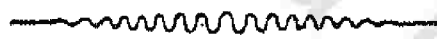
لبنان على عهد القائميتين

٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ الى ٩ حزيران سنة ١٨٦١



بدعة القائميتين . حوادث سنة ١٨٤٥

ثورة الاهالي في كسروان . حركة ١٨٦٠ . تدخل اوربا في لبنان



ذكرى وعبرة

اذا وقعت في بلاد حوادث خطيرة من فتن داخلية
وحروب «اهلية» تُبَلِّلُ حياة الامة ، فقد يتعذر على العامة
من معاصري تلك الحوادث ومشاهديها مشاهدة عيان ان
يتبينوا اسبابها ويحكموا على مقدماتها ونتائجها حكماً صحيحاً ،
فيكونون في الغالب عرضة للمؤثرات المحيطة بهم ، لا يرون

من الحوادث الا حاضرها ضارين صفحاً عن مسبباتها
وعاجزين عن الوصول الى نتائجها في حين ان لكل حادث
مقدمات يترتب عليها وقوعه فنتج عن وقوعه نتائج تجهلها
العامة وقد لا تخفى على الخاصة . ومتى حصل ذلك تشبث
الشعب بالعرض ونسي الجوهر فيضيع عن محجة الهدى
ويعمى عن الحقيقة ، فيناله في حياته القومية ضرر قد لا
تكفي الاجيال لازالته

وهذا ما حصل في لبنان في الفترة المنقضية بين

سنة ١٨٤٠ و سنة ١٨٦٠ .

لم تر العامة يومئذ في تلك الحوادث الا ما وقع تحت
اعينها ، ولم يقع تحت اعينها الا اقتتال بين الدروز والنصارى
وسلسلة ملاحم سالت فيها الدماء انهاراً ، فاستنتجت العامة
ان الدروز والمسيحيين هم بحكم الطبع اعداء لا يتفقون ،
وسهي عن بالها انهم قبل ذلك العهد قد عاشوا الاجيال
الطوال على اتم وفاق واصفى اخاء .

فاذا قرأ اليوم عقلاء اللبنانيين صفحة تلك الحوادث

المشؤومة^٦ وصرت امام اعينهم في لحظة بصرٍ مدةً تلك
السنين العشرين^٦ وهم بعيدون عن مؤثراتها^٦ خالون من
تبعثها^٦ راعتهم فظاعة ذلك الشرك الذي نصبته الدسائسُ
في لبنان ووقع فيه آباؤهم وجدودهم

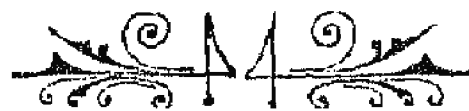
واذا تبينوا اسباب تلك الحوادث وفقهوا مقدماتها
ونظروا الى نتائجها^٦ وجدوا ان عليهم واجباً مقدساً لوطنهم:
ان يصونوا يومهم عن امثالها ويدروا عن مستقبلهم شرَّ
الوقوع في فظائعها^٦ وليس من دواءٍ لذلك الداء الا في قطع
دابر الدسائس والتفريق.

والحكيم من اتعظ بأمسه ليومه ويومه لغده^٦ فيعلم
اللبنانيون قاطبة انهم^٦ وهم متضامنون في قوميتهم^٦ اصلب
قناة على الغامزين. وانهم^٦ وهم متفقون في بلادهم^٦ أبرُّ
بعضهم من سواهم بهم. وانهم على كل حال اسلم عاقبة
لوطنهم وأبقى.

فليطلع اللبنانيون على تلك الحوادث لا من حيث أنها
تعيد الى الذهن ذكرى مؤلة^٦ بل من حيث هي امثلة رشيدة

في عقبى التفريق المذهبي ونتيجة التحزب الديني ، فيقابلوا
بين ضعف لبنان وهوانه بعد سنة ١٨٤٠ ، وبين عزه
وسلطانه قبل ذلك التاريخ . ويعلموا من جهة اخرى ان
تدخل اوربا في لبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ لم
يغنىهم عن التضامن شيئاً ، وان الداء اذا كان في النفوس
فلا تفعل فيه المسكنات الخارجية .

تلك هي العبرة الكبرى التي نستخلص من سلسلة هذه
الحوادث عظةً وهدى للوطنيين المخلصين ! ..



الفصل الاول

اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ . الحركة الثانية سنة ١٨٤٥

شكيب افندي في لبنان



اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢

وأّت الدولة بعد حادثة عمر باشا انه لايسهل عليها ان
تقيم فوراً والياً تركياً على لبنان فارجأت ذلك الى وقتٍ
النسب ، غير انها وضعت نصب عينها غايةً باتت محور
سياستها في لبنان الا وهي نزع الحكم من الشهابيين .
وقصدها من هذا العمل ان لا تُبقي في الجبل « اسرة مالكة »
تكون عنوان استقلال البلاد .

وكان ان رجعت فرنسا الى نفسها فرأت انها لم تؤيد
الامارة اللبنانية حق التأييد في ازمة الامير بشير الكبير ،

وهو لم يسقط إلا لاحتفاظه بعهد محمد علي مدفوعاً الى ذلك
بسياسة فرنسا^١ . فرأت ان تعوض مما فات فارسلت الى
سفيرها في الاستانة « البارون دي بوركيني » ان يؤيد
طلب اللبنانيين فيتشبث باعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت
عليه من الوحدة والاستقلال . فدعرت الدولة من طلبه
بعد ان عملت ما لا يعمل حتى تهدم صرح تلك الامارة.
فاستنجدت سفراء الدول على سفير فرنسا وما زالت بهم
حتى استمالت فريقاً منهم اليها . ولما طال الامر بالسفراء ولم
يقرّوا على رأي^٢ اقترح احدهم^٣ حلاً للمشكلة^٤ ان يقسم لبنان
الى قائمتين : نصرانية وعليها امير مسيحي من غير
الشهابيين^٥ ودرزية وعليها امير درزي

فرضيت الدولة بذلك الاقتراح^٦ شرطاً ان لا يحبوا لها
شبح الامارة اللبنانية القديمة

وقد تمّ شطر الجبل على هذا الشكل بموجب اتفاق
تاريخه ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢^٧ من مقتضاه ان باشا صيدا يعين

القائمقامين من اهل لبنان ويكون لهما السلطة الكافية
في ادارة الامور الداخلية

وقد وُلِّيَ فعلاً الأمير حيدر اسماعيل المعني قائمقامية
النصارى ، والأمير احمد ارسلان قائمقامية الدروز^١ . فكانت
هذه البدعة الجديدة في شكل الحكومة اللبنانية اكبر صدمة
لاستقلال لبنان . وقد اضطرت الحكومة الفرنسية يومئذٍ
الى القبول بها مكرهة ، اما البرلمان الفرنسي فشعر بما في
شكل الحكم الجديد من الخيف على لبنان فأبى التصديق
عليه ، وصرح « بوجوب الرجوع الى ادارة حكم تكون
مطابقة لاماني اهل لبنان »^٢

وعلى كل فخلُ المسئلة على هذا الشكل لم يرض احداً
من الفريقين :

فهو من جهة لم يرض الدولة لان غرضها نزع الحكم
من اللبنانيين وتعيين القائمقامين من الاتراك^٣ ، او على الاقل

١ المحررات ج ١ عد ٦١

٢ » » ١ » ١٣٨

٣ » » ١ » ٦١

تضييق سلطتهما بحيث يصبحان آلة في يد والي صيدا
وهو من جهة اخرى لم يُرضِ اللبنانيين ومؤيديهم
فرنسا لتشبثهم باعادة الامارة الشهابية على الجبل.
فاعتبر الفريقان تلك الطريقة وقتية وباتا يرقبان
الفرص لنقضها، كل على هواه

وقد استنجد اللبنانيون يومئذٍ ان تدخل الدول الاوربية
في لبنان اضعف حقوقهم بدلاً من ان يزيدوها. من ذلك
ما جاء في احتجاج رُفع باسمهم الى الدول في ٢٩ ك ١ سنة
١٨٤٣ ، على اثر سلخ بلاد جبيل عن ادارة الامير حيدر
والحاقها بحكومة طرابلس وجعلها تحت سلطة باشا تركي ، فقد
جاء فيه : « اذا سكنت الدول عن هذا الاغتصاب الجديد
لا يبقى لمسيحي لبنان الا ان يختاروا بين امرين : إما الاقدام
على حماية مهد امتهم المقدس مستميتين في هذا السبيل
عاقدين رايات الحرب على حكومة الباب العالي ، إما هجر
وطنهم العزيز الذي صدوا عنه هجمات الاعداء في الزمان
السابق . بيدان هذا الشعب لا يسعه الافتراض ان تدخل

الدول المسيحية العظمى في سوريا يؤول الى جعله في هذا
الموقف الحرج او تكون النتيجة فوز الاتراك في لبنان .^١
فلم تشأ الدول ان ترمي اللبنانيين في مهاوي اليأس
فايدت احتجاجهم فأعاد الباب العالي بلاد جبيل وملحقاتها
الى لبنان .^٢ وقد حذر سفير انكلترا الباب العالي من
تهوره في انكار حقوق اللبنانيين وصرح له بان ليس لتركيا
الحق بالتعرض لشؤون لبنان الداخلية . قال السفير ما ترجمته
« ارى انه يتعذر انكار حق اللبنانيين الثابت بإدارة شؤونهم
الداخلية على يد ولايتهم الوطنيين . . . »^٣

*

الحركة الثانية سنة ١٨٤٥

لم يُعر ولاية سوريا النصح اذنًا صاغية بل ظلوا يدسون

١ المحررات ج ١ ع ٦٤

٢ » » ١ » ٦٨

٣ » » ١ » ٨٢

الدسائس ويحركون عوامل التعصب بين الدروز والنصارى
جرّ المشاكل والاضطرابات في الجبل ، حتى يُثبتوا للعالم انه
يتعذّر استتباب الأمن في لبنان مادام عليه حكام من
الوطنيين ، وانّ العلاج الوحيد هو تعيين حاكم توكي
على البلاد . وقد ساعدتهم بدعة القائمقاميتين على بلوغ
امنيّتهم . فان هذه الطريقة ، يجعلها الدين اساس الحكم في
الجبل ، قد قطعت روابط الوحدة القومية وفككت عرى الاتحاد
الوطني بين الدروز والنصارى فبدلاً من ان يظلوا معبرين انفسهم
لبنانيين قبل كل شيء كما كانوا في الماضي ، انشقّ الجبل
شطرين : درزيا ومسيحياً ، وهو غاية ما كانت تطمح اليه تركيا .
ولما رأى عمال الدولة ان مازرعوه في النفوس من
بذور التعصب قد نمت ، اوغروا صدور بعض الرعايا وكلفوهم
اضرار الشرارة الاولى من النار ، حتى اذا اشتعلت تركوها
تتمدّ وتقوى الى ان اتهمت انحاء الجبل وتعدّتها الى
الولايات السورية بين المساميين والنصارى : تلك هي سياسة
« فرق تسد » التي لم ينتبه لها اللبنانيون الا بعد وقوعهم

في نتائجها الفظيعة فكان ما كان من حوادث سنة ١٨٤٥ .
وقد اثبتت المكاتبات الرسمية انَّ الذنب كل الذنب فيها
كان على الحكومة التركية لا على الشعب كما سبق حصوله
سنة ١٨٤١ : من ذلك ما جاء في كتاب ارسله زعيم^١ من
زعماء الدروز في تلك السنة الى كبير منهم يطمأنه فيه الى
عاقبة القتال بقوله : « لا تخافوا لانه قد كتب امره الى
حامية عبيه بمساعدتكم .. » وكتب ايضاً الى مشايخ اقليم
الخروب واعيان المسلمين يقول لهم : « ان الباب العالي قد
جاد وسمح لنا بمهاجمتها (الامة المسيحية) وان دولة افندينا
داود باشا المعظم قد فوض الينا محاربتها وساعدنا عليها بجنوده
السلطانية .. فنريد من هممكم وبسالكم ان تسرعوا حالاً
وتهاجموا الدية لان الجالية التي فيها قد برحتها بامر مصطفى
بك .. فلا تخشوا شيئاً لاننا نحن والباب العالي يد^٢ واحدة
في هذه المسئلة وهذا كافٍ لطمأنيتكم وبه غناية عن
اطالة الشرح .. »^٣

١ أثبت هذين الكتابين المسيو بوجاد فنصل فرنسا في بيروت في كتابه

ولم يكن كلام ذلك الزعيم الدرزي عن تعصب طائفي
وحقد مذهبي بل كان مدفوعاً اليه من ولاية سوريا وموظفيهم
الذين ذكروهم والبرهان هو انه على اثر تلك الحوادث ارادت
الدولة ان تنصل من المسؤولية فسجنت من سجنت في ثكنة
الجنود في بيروت ومن ضمنهم ذلك الزعيم فذهب لعيادته
الكونت غندور بك السعد لاعتقاده أنه كان محمولاً على فعل
ما فعل . وقد روى الكونت انه في خلال الحديث قال له
الزعيم الدرزي : « اتم حاسبينها ونحن حاسبينها وكلانا
وقعنا فيها »^١

وجاء في رسالة للمسيو غيزو الى سفير فرنسا في الاستانة
بتاريخ ايار سنة ١٨٤٥ ما ترجمته : « ان هذه الجنود
(العثمانية) .. غمست يدها في دم المسيحيين في ظروف عديدة
وأنت اعمالاً بربرية بحيث لم يبق ادنى شك في تأمر

عن لبنان وسوريا ص ٢٤٧ — ٢٤٩ وعلق عليها ان الشيخ المشار اليه كتبها
في بدء فتنة سنة ١٨٤٥ فوقاً بين يديه وسلمها الى وجيهي باشا مشير ايلة
صيدا فاعترف بصحتها .

الباب العالي مع اعداء الموارثة .. »^١

ولم يخفَ يومئذٍ على اللبنانيين سبب الاضطرابات
الحقيقي فرأوا ان المفسدين قد لعبوا بهم وجروهم الى تلك
المذابح الاهلية فسعى عقلاء الدروز والنصارى الى اصلاح
ذات اليين فوجدوا من طيب اخلاق الشعبين الكريمين
اكبر مساعد على نسيان الماضي^٢ فقدت بين مندوبي
الدروز والنصارى وثيقة تاريخ ٢ يونيو سنة ١٨٤٥ تعهد فيها
الفريقان بالرجوع الى الصلات الودية القديمة « ليعيشوا بكمال
الوئام مراعين واجبات الجوار وناسين الماضي ماحين كل ما
وقع بينهما من سجل الكواثر .. »^٢

وقد زادت تلك الحوادث اعتقاد اللبنانيين ان الدواء
الوحيد لذلك الداء انما هو اعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت
عليه من الوحدة والاستقلال

وقد ابلغ اللبنانيون طلبهم يومئذٍ الى اوربا فاهتمت

١ المحررات ج ١ عدد ١١٠

٢ » ج ١ » ١١٣

مجالسها النيابية بالامر وطرحت مسألة لبنان على البرلمان
الافرنسي في جلسة ١٥ تموز سنة ١٨٤٥ فعنف الكونت
دي كاتربارب وزارة الميسو غيزو واتهمها بالضعف وعدم قيامها
بالواجب نحو اللبنانيين فاجابه الميسو غيزو وزير الخارجية
واعترف بمسؤولية السلطة التركية في الحوادث وصرح بان
فرنسا لا تفتر عن مساعدة اللبنانيين في تحقيق امنيتهم وانها
لا تتحول عن سياستها القديمة المعروفة من المطالبة باعادة
امارة لبنان الى ما كانت عليه^١

وفعللاً بذلت الحكومة الافرنسية جهدها في سبيل
اعادة الامارة اللبنانية والغاء اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢^٢
فلم يجد التعضيد الكافي من سائر الدول

وقد استفاد الباب العالي من تفرق الكلمة فتبرأ مما
حصل في لبنان ملقياً تبعته على عاتق المامورين في
سوريا وابلغ الدول انه اثباتاً لحسن النية قد اتدب
السلطان عبد الحميد وزيراً خارجيته بالذات شكيب افندي

موفداً خاصاً الى سوريا لاجراء النظام وتسكين الحال^١

شكيب افندي في لبنان

وَصَلَ شَكِيبُ افندي الى بيروت في ١٤ ايلول سنة ١٨٤٥ وطلب من ممثلي الدول ان لا يتعرضوا له في شي متعمداً بعمل كل ما يلزم لتهدئة الخواطر والقاء السكينة وترتيب الحكومة . وقد بادر فور وصوله الى ابعاد رعايا الحكومة الاجنبية من لبنان حتى لا يكون لدولهم سبيل الى التدخل في حال من الاحوال ، وملاً البلاد عسكرياً نظامياً وأمر بنزع السلاح مؤكداً في الوقت ذاته للبنانيين : « ان نزع السلاح من ايديهم لا يُراد به مس امتيازاتهم القديمة » وما زال يطمأن خاطر اللبنانيين من جهة ويُطلي على ممثلي الدول من جهة أخرى حتى تمكن بعد مخاضات ومفاوضات لا محل لذكرها الى ذر الرماد في العيون فسادت الفكرة ان الحال قد هدأت على احسن منوال

وقد ابقى الامير حيدر الشعي قائمقاماً على النصارى
واقام مكان الامير احمد ارسلان اخاه الامير امين ارسلان
وقد سن نظامه المشهور المعروف « بنظام شكيب افندي »
وأساسه تضييع ما بقي من استقلال لبنان ووحدة حكومته
ورابطة قومه بان ضيق سلطة القائمقامين كل التضييق وجعلها
في اكثر الامور الاساسية تحت سلطة باشا صيدا ، ووسع من
جهة اخرى شقة الخلاف بين الدروز والنصارى وشطرها في
كل امورها شطرين ، كل شيء فيها للدين . وقد فطن
الكثيرون من اللبنانيين الى ما في ذلك النظام من الحيف
وتقويض دعائم الاستقلال فاحتجوا عليه لدى الدول ، وقد
أيدهم البرلمان الافرنسي في احتجاجهم كل التأييد في جلسات
متعددة . ولا سباب لا محل لذكرها لم تجد فرنسا بين الدول
من يشد أزرها وأزرهم في الامر فكانت النتيجة أن عمل
بنظام شكيب افندي فزاد به تفكيك الوحدة اللبنانية .

الفصل الثاني

حوادث لبنان في البرلمان الفرنسي

جلسة ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦ . جلسة ١٦ حزيران سنة ١٨٤٦

جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧



بلغ مسامع فرنسا ما حلّ بلنّان من الكوارث والمصائب
فاهتزّت مجالسها النيابية لهول ما سمعت ولم يخفّ على
المفكرين الأحرار من أعضائها أن أوروبا عامة وفرنسا خاصة
مسؤولة نوعاً عما دهم الجبل من الفواجع والمحن لتلاعب
الأيدي بلبنان وأميره وأهليه بمناسبة الحملة المصرية على سوريا
سواء في عهد الفتح سنة ١٨٣١ أو في عهد الانسحاب سنة
١٨٤٠ : ففي كلا العهدين دُعِيَ اللبنانيون إلى القتال

على ان يكون ثمن ما يريقون من الدماء نيل الحرية المطلقة ..
فبادروا اليه مستبسلين وحاربوا في العهدين حرب الاسود
حتى شهدت المقامات الرسمية ان انضمام اللبنانيين الى
ابراهيم باشا ضمن له تدويخ سوريا كما ان خروجهم عليه
اضطره الى الجلاء عنها .. وبالرغم من ذلك لم ينل
اللبنانيون ثمن ضحاياهم بل تخلت عنهم اوربا ولم تدفع الضيم
عنهم فرنسا . واصبحوا بعد ان انهكتهم تلك الحروب
مقطعي الاوصال مشتي القوى ولقمة سائغة للاعداء .

فاغتصمت تركيا الفرصة ، فعمدت الى تفكيك عرى
« القومية اللبنانية » وبذر بذور التعصب الديني في الصدور .
وقد نجحت سياستها فكان ما كان في لبنان من فتن ومحن
من سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٦٠ حتى تم ما خشي منه المسيو
ملفيل في مجلس نواب فرنسا حين قال لهم : ان جل ما
ابغيه هو ان لا يجعلوا لبنان كبولونيا ..

علمت اوربا بما حدث في لبنان وشعرت بمسؤوليتها نحوه
فاهتمت صحافتها ومجالس نوابها بالامر ، وكان اشد

ذلك الاهتمام في فرنسا لما بين الشعبين من المحبة المتبادلة والعلاقات القديمة^٦ فقام الخطباء في مجلس النواب يذكرون فرنسا بما للبنانيين من الحسنات والافضال منذ ايام لويس التاسع الى عهد بوناپرت ويستحثون الحكومة على بذل المعونة للبنان مبادلة لصنيع اللبنانيين :

ولا بأس بالتبسط قليلا فيما حصل يومئذ في البرلمان الافرنسي من هذا القليل

جلسة ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦^٦ دي ملفيل

في تلك الجلسة خطب المسيو دي ملفيل ولام وزير الخارجية على عدم سعيه الى اعادة امارة الجبل الى ما كانت عليه من الاستقلال تحقيقاً لوعدها للبنانيين سنة ١٨٤١^٦ واستحلف الوزارة ان تقوم بوعودها للبنان ولا تسمح ان يكون مصيره كبولونيا^٦ قال النائب : « انا كثيراً يا حضرة النواب ما نرعى هذه الشعوب بعدم التمدن والحداثة والغش لكننا اذا تعلمت يوماً ان تكتب التاريخ فانها تجد مجالاً واسعاً

لل كلام . . لانه في ذلك العهد جاءها اناس^١ اثاروها بوعدهم لها حفظ ضماناتها وامتيازاتها بل توسيع دائرتها . . وهنا سرّد النائب من الحوادث ما يثبت انه لم يُبر بالوعد. ثم قال : « ان اهالي جبل لبنان المسيحيين الذين حفظتهم العناية الربانية فيه . . لم يكونوا قط تحت حكم الباب العالي مباشرة ولم يكن له عليهم الاسيادة اسمية . »

وقد تبسط النائب في هذا الموضوع وأتى على ملخص تاريخ الحوادث التي وقعت في لبنان منذ سنة ١٨٤٠ فأثبت ان الدسائس كانت السبب في وقوعها ، لا تعصب الاهلين . وختم خطابه بقوله للوزير : « كان اصحابكم يقولون بالامس يجب ان نجعل في الشرق بلداً يشبه سويسرا ، وانا اسألكم ان لا تجعلوه يشبه بولونيا . »

١ كانت بولونيا منذ الجيل التاسع مملكة مستقلة وظلت كذلك الى سنة ١٧٩٤ فتدخلت في امورها الامبراطورة الروسية كاترين . ومنذ ذاك الحين أخذت الدسائس تنخر عظام بولونيا وتثير فيها عواطف التعصب الديني والمذهبي حتى انقسمت الامة على بعضها : فاستنجد الارثوذكس بالامبراطورة كاترين واستغاثت البروتستانت بملكة النمسا ماري تريز وبملك بروسيا فردريك الثاني . وما زالت تلك الحكومات الثلاث تتجاذب الطوائف والاحزاب البولونية حتى

الجلسة ١٦ حزيران سنة ١٨٤٦ : لاهوتيين

خطب في تلك الجلسة المسيودي لاهوتيين المشهور
خطاباً مطولاً بسط فيه المسئلة اللبنانية من سنة ١٨٤٢
فذكر حقائق عرفها شخصياً اثناء رحلته الى لبنان سنة
١٨٣٢ وشهد باتحاد اللبنانيين من دروز ونصارى كما انه صرح
رسمياً ان فرنسا مسؤولة عن نكبة الامير بشير وعن
زعزعة استقلال لبنان ... قال :

« عليّ ان اصلح الهفوة التي بدرت امس من حضرة
المسيودي ملفيل فقد قال بوجود خلافات واحقاد قديمة
بين شعوب لبنان في حين ان لاشيء من ذلك . وجلّ ما
بين الموارنة والدروز خلاف في العقيدة .. فالموارنة مسيحيون

تقطعت اوصال الامة وانقرط عقد وهدتها فأدى ذلك الى تقسيمها بين روسيا
والنمسا وبروسيا . فأصبح تاريخ بولونيا منذ ذاك الحين سلسلة قلاقل داخلية
ومنازعات دامية بين الشعب البولوني وتلك الحكومات حتى جاءت هذه الحرب ،
وكان قد عرف البولونيون علة مصائبهم فاتفقوا واتحدوا على مبدأ بحفظ كيان
أمتهم واستقلالها وقاموا اليوم يطالبون بحقوقهم فاخذ الحلفاء ييدهم وسقنل
بولونيا استقلالها بفضل اتحادها وحياة القومية في اهلها على اختلاف طوائفهم
وتباين نزعاتهم ...

كاثوليك ، وسبق لي ان قلت في هذا المجلس ان العقيدة الاساسية في مذهب الدروز هي حفظه سرّاً في قلوبهم . ولهذا كانوا متحدين مع الموارنة في عهد الامير بشير .

« والامير بشير لم يرتكب سوى خطأ واحد دفعته اليه سياستنا وهو انه مال حيناً الى ابراهيم باشا فأغضب الباب العالي ، ولما اضطر ابراهيم باشا الى مغادرة سوريا ، فأول عمل أتمته الحكومة المنتصرة ان اسقطت سلطة الامير بشير . . » ثم تطرق الخطيب الى ذكر حقوق لبنان والى الحالة التي يجب الرجوع اليها في طريقة الحكم فيه قال : « وما هي هذه الحالة القديمة العهد الثابتة من مثتي سنة والمعترف بها من جميع الدول ؟ هي وحدة السلطة والامارة في يد الامير بشير . . »

« لست بحاجة الى ان أعيد على ذكراكم كم هذه القضية حرية بعنايتنا ومزيد اهتمامنا . ولا اقول شيئاً عن عواطفى الخاصة اتقاء ان أتهم بانى أريد ان أخضع سياسة بلادى لها ، انما طالعوا اقوال فولنه الذي قضى سنتين بين الموارنة

الشريطين المنكودي الحظ فيمثل لكم اسمى الفضائل التي
كانت تجمل المسيحيين الاولين مجسمة في شخص أجمل
طائفة وأنبها وأجراًها، ويرىكم الشعب الماروني كأبدع أمة
في الشرق يمكن ان تلقح بها شجرة الأمة المسيحية . فاذا
تركتموها تهلك اوتباد فاصرح لكم اني اعد ذلك كآخر
نقطة من ثفالة كأس شربناها سنة ١٨٤٠ وكان عليكم اقله
ان تبذلوا الجهد لئلا تتحول هذه الثفالة الى نقطة دم .
اما انا فاني أتهم الحكومة الفرنسية ليس فقط بضعف
بصيرتها في المسألة الشرقية العظمى منذ سنة ١٨٣٦ بل بقلّة
الشهامة والحزم ، ولا يوجد رجل فطن منزّه عن كل غاية
الا ويشاطرنى رأيي .

«لماذا عاكست الحكومة في اول اذار؟ لاني تيقنت بعد
البحث الدقيق ان السياسة الفرنسية ارتكبت غلطاً عظيماً
بتوجيه كل عنايتها الى مصر واهمالها السكّان الذين توجب
علينا وحدة الايمان وحماية متقادمة العهد ان نعصدهم بكل قوى
سياستنا فلا تتركهم عرضة للاعتداء البربري والسلب والنهب .

لاي سبب بعد سقوط الوزارة المذكورة في اول اذار
عضدت باقتراحي الوزارة الجديدة في بدء عهدها؟ لاني
كنت اعتبر ان الوطنية الحققة تقضي عليّ بتأييدها
لانهاض سياستها من كبوتها في المسألة الشرقية، وبان لا اسمح
على قدر طاقتي بتعريض امة محبوبة من فرنسا منذ عهد
القديس لويس حتى لويس الرابع عشر الى الفناء من جراء
جهل الوزارة او ضعفها . بيداً انه قد سقط من كنت اريد
انهاضه وتزعزع ما قصدت توطيده اذ أن نتائج السياسة التي
انتهجتها حكومتنا اوصلتنا الى حالة اوشك المسيحيون في
الشرق ان ينسوا ما قد بذلته فرنسا في سبيل نفعهم . ومع
ذلك قد سمعتم امس واول من امس حضرة وزير الخارجية
يسألنا السكوت عن مسألة سوريا، وكل مرة عرضت علينا
مسألة خطيرة مثل هذه طلبوا منا الصمت . وقد طلبوه منا
امس واليوم عن الموارنة الباسلين ولا ذنب لهم الا لكونهم
وضعوا آمالهم فيكم ونادوا باسمكم مستغيثين ومدّوا اذرعتهم
الى فرنسا متوسلين . فهذا هو الشعب الذي سُئِلتم اليوم

السكوت عن امره . اما تعلمون ماذا يحدث ؟ سيأتي يوم فيه يقولون لكم : لم يبقَ ثمَّ مسألة سوريا ولا مشاكل ولا منازعات . اجل انه لا يبقى مسألة ، اذ يكون الشعب الماروني قد ادركه الفناء !

«علينا ان نرفض كم افواهنا وعلى فرنسا ان ترفع صوتها بقدر ما تخفضه حكومتها وتعلن على رؤوس الاشهاد انها لا تتسامح في اي مكان كان في الاحترام الواجب لاسمها ولا تترك اصدقاءها والموارنة في بجلتهم ، وتجهر بأعلى صوتها بما تقدم حتى اذا هلكت هذه الامة المنكودة الحظ يوماً ما فالتبعة تقع على عاتق من يعنيه الامر ، وتسقط آخر نقطة من دمها ليس على فرنسا بل على حكومتها . »

على اترك تلك المناقشة وعدت الوزارة بالاهتمام بمسألة لبنان والمحافظة على حقوقه . وكان فصل العطلة البرلمانية قد أذف فارفض المجلس . وما عاد الى الالتئام حتى رجع الى المناقشة في المسألة اللبنانية :

وفي تلك الاثناء كانت المشادّة قد بلغت اقصاها بين اللبنانيين والباب العالي فيما خصّ اعادة الامارة اللبنانية الى سابق استقلالها ووحدة سلطتها واللبنانيون يعللون النفس عبثاً بمساعدة خارجية فعلية تنيلهم حقوقهم^٦ ولما طال على تعاليمهم الزمان رفعوا الى البرلمان الافرنسي عريضة تلاها على المجلس الكونت دي كاتربارب في جلسة ٦ اكتوبر سنة ١٨٤٧ جاء فيها : « اجيبونا صريحاً وبجلاء اذا كان يمكننا ان نتنظر منكم مساعدة عاجلة او تتخلون عنا فعلم اذ ذاك كيف يجب ان نتدبر فلا نستسلم الى الآمال الفارغة .. »

جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧ : كاتربارب ، مفيل ، كريميو

لم تقتصر المطالبة بحقوق البلاد على فريق من اللبنانيين دون فريق بل اشتركوا فيها على اختلاف مذاهبهم فارسل المسيحيون والدروز عرائض الى البرلمان الافرنسي في صيف سنة ١٨٤٧ والجميع متفقون على الطلب ذاته : « اعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه مع حق التوارث فيها .. »

وقد عرضت هذه المرائض على المجلس الافرنسي في جلسة
٣ تموز سنة ١٨٤٧^١ فأيد الكونت دي كاتر بارب طلب
اللبنانيين كل التأييد وقال للمجلس : « يا حضرات النواب »
لا يوجد لهذه الحالة سوى علاج واحد هو اعادة اماره لبنان
الى ما كانت عليه مع دفعها للباب العالي الجزية واعترافها
بسيادته الرسمية وخلا هذه القاعدة لا تقوى اية حماية كانت
على توطيد اركان الراحة .. »

وكان قد زهق اهل لبنان يومئذٍ من كثرة الوعود وقلة
الاعمال فارسلوا في ذلك الرسائل الى النواب الذين كانوا
مستعدين لتأييدهم منها خطاب قرأ بعضه الكونت
دي كاتر بارب في تلك الجلسة ذاتها (٣ تموز سنة ١٨٤٧)
جاء فيه : « نعم انكم لم تفتروا حتى الآن عن السعي في
سبيل انقاذ امتنا فلا حاجة اذاً الى تحريضكم على مواصلة
مساعيكم اذ من يقدم على احداث بناء يتوجب عليه اتمامه
حتى اذا لم ينجزه يستهدف للسخرية وهزاء الناس . »

وقد علق النائب على هذه الفقرة بقوله : « ان هذه العبارة ليست موجهة الي لاني لست هنا سوى صدى ضعيف اودّد مصائب شعب جدير بكل اعجاب .. كلاًّ فما كنتم لترتضون بآبادة هذا الشعب .. وقد بقي وحدّة مائة ٨ قرون مستقلاًّ حرّاً في وسط السلطنة العثمانية .. »^١

وقام بعد الكونت دي كاتر بارب حاضرة النائب المسيو دي ملفيل ولفّت انظار النواب الى اختلاف سياسة المجلس عن سياسة الحكومة : فالمجلس يشدّد باعادة الامارة اللبنانية حسب طلب اللبنانيين^٢ والوزارة تتهاون وقد لآم الوزارة كل اللوم على عدم اتباعها رغبة المجلس .. ثم أتى على تاريخ حوادث لبنان من سنة ١٨٤١ وشرح كيف ان الباب العالي يسعى الى غايةٍ وضعها نصب عينيه وهي هدم استقلال لبنان متذرعاً الى بلوغها بكل الوسائل قال : « اني اذكر المجلس بانه بُدئَ اولاً بقسمة امارة لبنان المطلقة الحكم الى قائمقاميتين ثم ظهر ان قسمة السلطة هذه تجعل المسيحيين المقيمين في

القرى المختلطة وهم الاغلبية تحت حكم والٍ تركي وانه يخشى من تجديد جميع الرزايا التي تأسفنا لحدوثها ..

« واذ ذاك استنبطت طريقة انتخاب وكيلين اجدهما

درزي والآخر ماروني لموازنة سلطة القاطنيتين الواسعة »

فهذا التنظيم لم يأتِ بنتيجة وجاءت كوارث سنة ١٨٤٥

مصادقاً لقولنا ..

« ثم افكر فيما بعد بالشاء ديوانين مؤلفين من العناصر

المختلفة ووضعها تحت رئاسة السلطة التركية » فخبطت جميع

هذه التنظيمات لان غايتها جميعها كانت ترمي الى بسط

السلطة التركية على لبنان .. »

وقد خطب بعده المسيو كريمو النائب الاسرائيلي فاطهر

للمجلس واجب فرنسا نحو اللبنانيين ليس من قبيل الدين

فقط بل نظراً للخدمات الجليلة التي قام بها اللبنانيون لمساعدة

الافرنسيين من قديم الزمان قال : « اتسكتون والامر متعلق

بمسيحي لبنان ؟ ومن هم هؤلاء المسيحيون ؟ هم اخوانكم منذ

قرون ليس في المذهب فقط بل في السلاح وفي ساحات القتال

فقد وجدتموهم في كل الظروف .. فالتقديس لويس وجدتم
من قبل ونابليون كذلك .. »

فأبدى المجلس استحسانه وصرّحت الوزارة بعد تلك
المناقشة باستعدادها التام للاهتمام بالمسألة اللبنانية جدّ الاهتمام.
.....

يُحِبُّ ما تقرم بالانصار :

ان استقلال لبنان الداخلي كان ثابتاً تاريخياً قبل سنة
١٨٤٠ بأجيال

أنَّ الباب العالي لم يكن له في لبنان ، بشهادة مجالس
النواب والحكومات الاوربية ، الا السيادة الاسمية فقط
أنَّ البرلمان الافرنسي كان يشدّد على حكومته بوجوب
مساعدة اللبنانيين على اعادة « امارتهم المستقلة » لا لمنفعة
تناها فرنسا من وراء تلك المساعدة بل قضاء لواجب عليها
نحو اللبنانيين « وهم اخوات ليس في المذهب فقط بل في
السلاح من عهد لويس التاسع .. »

انه ما خطر يومئذ على بال اللبنانيين ، رغم ما حلَّ

بهم من المصائب المتابعة ، ان يتنازلوا عن شجرة من حقوقهم
بل كانت صراخهم وسعيهم وتضامنهم مقصوداً على التثبيت
باستقلالهم واعادة امارتهم الى ما كانت عليه من الوحدة
والمنعة ، ولم يجل في خاطرهم قط ان طلبهم عون دولة يقضي
عليهم بالتنازل لها عن استقلال البلاد او عن شيء منه بل
كانوا يعتقدون ان تلك الدولة اكبر وانبل من ان تكلفهم
تلك المساومة فتجعل مساعدتها واسطة للحصول على منفعة
في لبنان ، بل يرون انها اذا بذلت لهم ما تستطيعه من المعونة
يكون ذلك مبادلةً منها للمساعدات العديدة التي قام بها
اللبنانيون جهدهم في كل فرصة سنحت لهم من قديم الزمان...

.....

.....



الفصل الثالث

الامير بشير احمد اللهمي (سنة ١٨٥٤ - ١٧ ت ٢ سنة ١٨٦٠)

ثورة الاهالي في كسروان سنة ١٨٥٨ .

تعيين الامير محمد ارسلان مكان ابيه المتوفي الامير امين .

حركة سنة ١٨٦٠



لم يأت ما بُذل يومئذٍ من المساعي والمجهودات
بفائدة وظلَّ شكل القائمقاميتين في حكم لبنان يساعد على
تربية روحٍ جديدة في نفوس اللبنانيين ، روح التعصب للدين
والمذهب ، لان كل شي في حكومتهم وادارة شؤونهم ،
أصبح تابعا لصفة الشخص الدينية والمذهبية

وقد جاءت وفاة الامير حيدر سنة ١٨٥٤ ضغنا على

ابالة لان خورشيد باشا طلب ان تعين خلفاً له اقل من
كان بين الامراء لياقة للحكم وهو الامير بشير احمد ابو اللمع.
وغرضه من هذا التعيين ان تزيد الفتن ، اعتقاداً منه انه كلما
زادت الاضطرابات في لبنان وتفاقت الشرور كلما اتسعت
سلطة الولاة واطمحل نفوذ الحكومة الوطنية حتى يضطر
اللبنانيون في آخر الامر الى طلب والٍ تركي عليهم .

وقد شهد بذلك المسيو مورق فصل انكلترا العام في بيروت
في كتاب ارسله الى المسيو اليزون وكيل سفارة انكلترا في
الاستانة في قال فيه ٢٨ ك ٢ سنة ١٨٥٦ » . . اما السبب . .
في عضد الاتراك للقائمقام فهو السياسة التي انتهجوها ولم
يحيدوا عنها قط وقوامها توجيه المساعي الى ابقاء الاضطراب
في لبنان للتذرع الى الغاء ادارة حكمه الحالية وهم ينهجون
مثل هذا النهج في القائمقامية الدرزية . . »^١

وكتب المسيو مور المذكور في المعنى ذاته الى
الكونت ملمسبوري في ٢٧ ايار سنة ١٨٥٨ ما ترجمته :

« اما المقصود من سلوك خورشيد باشا في مسألة لبنان ونياته التي استشففتها هي ذات نيات الحكومة التركية في ان يسود الاضطراب في جبل لبنان على امل ان تتمكن في وسط القلاقل العامة من الغاء نظمات لبنان التي لم تقتر عن النظر اليها بعين الاستياء... »^١

وفعلاً حدث يومئذ في لبنان لسوء ادارة الامير بشير أحمد وعدم كفاءته ، ما كان يُنتظر وقوعه فبلغت الاضطرابات اشدّها وسنحت الفرصة لراقبيها فاثاروا الحزازات بين المشايخ والاهالي من جهة ، وعواطف التعصب بين الدروز والنصارى من جهة اخرى ، فجرت حوادث كسرات على اصحاب الاقطاع سنة ١٨٥٨ ، وتلتها اشدّ هولاً منها حركة سنة ١٨٦٠ والمسؤولية في الحادثين على عمال الدولة ، وغرضهم واحد كما كان سنة ١٨٤١ و سنة ١٨٤٥ ، وهو بسط سلطتهم على لبنان وادغامه في الولايات. والادلة الرسمية على ذلك لا تحصى :
منها ما جاء في كتاب المسيو مور الى السر هنري بولفر

بتاريخ ٣٠ حزيران سنة ١٨٥٩ عن حركة الاهالي في
كسروان ما ترجمته : « يخيل لي ان الحكومة تقصد بسكوئها
توسيع دائرة الخلاف بين الشعب ورؤسائه اصحاب الاقطاع..
بل تريد ابقاء جرثومة الهياج حية بحيث تضطر الشعب
وزعماءه الى طلب والي تركي والانضمام الى الحكومة التركية . »^١

وفي ٣ ايار سنة ١٨٥٩ توفي الامير امين ارسلان
فحين خورشيد باشا مكانه ولده الامير محمد . وقد جعل تعيينه
بصفة وقتية حتى يزيد الاضطراب ..^٢

وقد شهد المسيو مور بمسؤولية ولاية سوريا والجنود في
حوادث سنة ١٨٦٠ في رسائل عديدة ارسلها الى سفراء
انكلترا ووزرائها ، منها ما كتبه الى السر هنري بولفر في ٣١
ايار سنة ١٨٦٠ : « وانتهى اليّ ان الجنود التركية اطلقت

١ الحرات ج ١ عد ٢١٩

٢ تست : ج ٩ ص ٥٨

النار امس على المسيحيين في الحدث وبعدها وحرقتهم مع
مع وادي شجور وعاريا وبعض مزارع في الساحل ...
ويقال ان نفراً من الباشبوزق انقضّ على الامير بشير قاسم
امير جبل لبنان سابقاً بينا كان خدمه يقودونه الى خارج
داره في بعدا وهو بعمر خمسة وثمانين سنة اعشى البصر ..
وقد وجدت جثته مشخّطة بضرب السيوف وعنقه مقطوعة .^١
ومنها ان اهالي بكفيا لما بلغهم ما حلّ باخوانهم هبوا
لنصرتهم فاجتمع اليهم كثيرون من جيرانهم فاحتشدوا في
البلدة لا يقلون عن خمسة الاف مقاتل شاكي السلاح فبلغ
خبرهم خورشيد باشا فارسل اليهم يطيب خاطرهم ويشير عليهم
بالبقاء في بكفيا لانه سيتخذ هو الاحتياطات اللازمة
وفي ذلك يقول المستر مورفي كتابه الى السر بولفر

بتاريخ ١٦ حزيران سنة ١٨٦٠

« اخبرنا (خورشيد باشا) انه سمح للمسيحيين
المحتشدين في بكفيا وعددهم خمسة الاف ان يبقوا فيها

بسلامتهم وانه سيصدر أمره بإعادة السلاح الى من يريد
من المسيحيين اللاجئين الى هنا للعودة الى الجبل انضماماً
لاخوانهم^١ وانه سيرسل خمماية جندي نظامي لنجدة زحلة^٢
وانه أنفذ الاوامر الجازمة الى زعماء دروز لبنان بان لا يبدوا
اقل حركة ٠٠٠ »^٣ فكانت نتيجة ذلك ان الجنود التي
ارسلت الى زحلة هي التي كانت محور الشر ولولاها لما حدث
فيها شيء على الاغلب كما يستنتج من كتاب المستر مور الى
السرب بولفر في ٢٠ حزيران سنة ١٨٦٠ وفيه يخبره عن حوادث
زحلة وعن خبر سقوطها: « ٠٠٠ اما بخصوص سلوك المشير
وارباب السلطة التركية واعمالهم فاني اتأسف على ان اقول
انه مع شدة ميلي الى ان أحسن الظن بهم وانسب اعمالهم
الى أفضل النيات فالانباء والظواهر تلقي شديد الريبة في
صدق مقاصدهم ٠٠٠٠ ومن الشائع ان الدروز ارادوا بمهاجمة
زحلة نهار الاثنين من جهة الجبل العسكرية فيها الجنود
التركية اثبات الاعتقاد العام بانهم يعتبرون الجنود الاتراك

مخالفهم... »^١ وثاني يوم تأكد المستر مور خبر سقوط
زحلة فارس الى السربولفر كتاباً بتاريخ ٢١ منه جاء فيه :
« .. ويقال ان الجنود التركية اشتركت مع الدروز في مهاجمة
المسيحيين وقد اكد هذا الخبر اناس يقولون انهم شهود عيان
وان قد وصل المدينة خفية زهاء ثلاثين جندياً
جريحاً... »

وقد تحقق القناصل ان المسألة ليست بين الدروز
والتصاري بل بين الاتراك والبنانيين وان الدولة تريد ان
يتفانى اللبنانيون في حرب اهلية لبلوغ غايتها. وبناءً على
هذا الاعتقاد لم يعد القناصل يرجون اقل مساعدة من
خورشيد باشا في سبيل تسكين الحال بل كان اعتقادهم بالعكس.
وقد شهد بذلك المستر مور في كتابه المذكور انفاً عن سعي
القناصل حين بلغهم ان دير القمر مهددة قال : « وفي الوقت
ذاته اشتركت مع رصفائي في استنهاض خورشيد باشا لاتخاذ

دير القمور وقد فعلنا ذلك مراعاة للظواهر على غير أمل في
نجاح مسعاينا ...»^١

وكان ما خشي منه المسترمور^٢ فان الحامية التركية
في دير القمر فعلت ما فعلته شقيقتها في زحلة وفي ذلك يقول
المسترمور في كتابه الى السير بولفر في ٢٣ منه « ان الانباء
المفصلة التي وردت عليّ عن مذبحة دير القمر تفيد ان
الحامية التركية خدعت الاهالي واقنعتهم بتسليم اسلحتهم ...
ان النساء التي جاءت بهن البارجة « غانيت » قلن لقائدها
« لامير » ان الجنود التركية اساءت معاملتهم اكثر
من الدروز ...»^٢

وقد شهد اللورد دفرين^٣ وشهادته على تركيا لا تُردّ^٤
« ان المذابح الاخيرة وكل الحروب الفضيعة والاضطرابات
التي دعت لبنان في الخامس والعشرين سنة الاخيرة كانت

١ المحررات ج ٢ عد ٦١

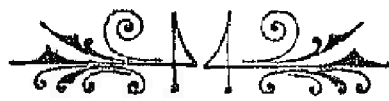
٢ » » ٢ » ٦٢

نتيجة مساعي الحكومة التركية . »^١

وقد اضطرب احرار النواب في مجالس اوربا لتجدد تلك الحوادث في لبنان فحرت في مجالس العموم الانجليزي مناقشة في هذا الصدد في جلسة ١٧ آب سنة ١٨٦٠ فلم يخف السرشارل نابيير اشمئزازه مما حصل وعطفه على اللبنانيين لان اوربا وعدتهم كثيراً ولم تف لهم بشيء من وعودها كما جرى على يده سنة ١٨٤٠ حين كان كومدور العمارة التي ساعدت تركيا على ابرهيم باشا في سوريا . قال حضرته : « قلت في الاجتماع الذي عقد في ادنبورج وكررت فيه فيما بعد على مسامع ندوة العموم اني مخجل من الدور ... الذي لعبته في سوريا . . ولم يبق ادنى ريب بات الاتراك بذلوا جهدهم لحمل اهالي لبنان على شق عصا الطاعة على الحكومة المصرية فلم ينجحوا فكلفت اذ ذاك بات اعد اللبنانيين بان الاتراك يحسنون معاملتهم اكثر من المصريين ففعلت وكان ان قام جمهورهم على الحكومة المصرية ولولا مساعدتهم

لتهذّر على الحكومة نظراً لقلّة عدد جنودها اصابة النجاح
الذي ادركته . »^١

وقد بلغت فظاعة تلك القتل وتجدّدها مبلغاً حمل اوروبا
اخيراً على التدخل في الامر فكانت النتيجة على عكس
ما رجته تركيا من عملها: فبدلاً من ان تتمكن من الحاق
لبنان بالولايات اضطرت الى موافقة الدول على الاعتراف
باستقلاله الداخلي في معاهدة دولية لا قبل لها بالغائها.



الفصل الرابع

تدخل أوروبا في لبنان

اتفاق ٥ ايلول سنة ١٨٦٠

تعيين يوسف بك كرم قائماً على النصارى

لما حدثت فترة سنة ١٨٦٠ بعد فتن سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ أيقنت أوروبا ان لا أمان في لبنان ما زال للدولة أمل بالغاء استقلاله وان السبيل الوحيد الى وضع حد لتلك الحال هو أن تُعاد الإمارة اللبنانية الى ما كانت عليه : يُقام عليها امير وطني تُبنى حكومته على الكفاءة كما كانت الحال في الماضي لا على قاعدة الطوائف التي اوجدها الاتراك بعد سنة ١٨٤١ ، وان تكفل الدول تلك الإمارة وتضمن استقلالها بمعاهدة دولية تقطع آمال تركيا فتهدد البلاد ويرقى لبنان ...

ولقد اتمت الدول نصفَ مهنتها : فكفلت نظام لبنان
بمعاهدة دولية الاّ انها لم تُقم عليه اميراً ولا اعطت لبنان
حدوداً كافية ولا نزعت القاعدة الطائفية . ولذلك فهي لم
تبلغ الا نصف الغاية المنشودة : فهذأت البلاد ، الاّ ان الترقّي
كان ضئيلاً او معدوماً ...

وبالنسبة لعلاقة فرنسا بلبنان كما تقدم باشرت الحكومة
الافرنسية المخابرة مع الدول بشأن التدخل في لبنان فارسل
وزير خارجية فرنسا المسيو توفانل بتاريخ ٦ تموز سنة ١٨٦٠
تعليمات بهذا المعنى الى سفراء دولته في لندره وفيينا ويطرسبرج
وبرلين ليعرضوا على تلك الدول راي حكومة الامبراطور
بارسال لجنة الى لبنان قوامها مندوبو الدول والباب العالي
لدرس الانظمة الواجب وضعها صوناً لحقوق لبنان واحتفاظاً
بالامن والنظام في بلاد لا يمكن اطلاق راحتها « دون
تعريض السلم في الشرق الى خطر عظيم »^١

١ المحررات ج ٢ ص ١٦٦
الكتاب الازرق الانكليزي في حوادث سوريا سنة ١٨٦٠ سنة ١٨٦١
عد ٦ ص ٣ و ٤
دي آستا عد ٣٦ ص ٨١ و ٨٣

وكتب الميسو توفانل الى سفيره في الاستانة رسالة
بالمعنى والتاريخ ذاتهما يشير عليه بمفاوضة الباب العالي في الامر.
وعلى اثر تلك المفاوضة ارسل السلطان عبد المجيد الى
الامبراطور نابوليون الثالث رسالة عن قصر طولمه بعبه
بتاريخ ١٦ منه أكد له فيها عزمه على قضاء واجراء العدل في
لبنان ، ومما جاء فيها قوله : « ولكي لا يبقى ادنى ريب في
نيات حكومتي قد شئت ان اعهد بهذه المهمة الخطيرة الى
ناظر خارجيتي (فؤاد باشا) المعروفة اراؤه لدى جلالتهكم ^١ »
وفعلا ارسل السلطان فؤاد باشا الى سوريا بفرمان
يطلق فيه يده في مسائل لبنان وسوريا وقد احتفل بتلاوته
في بيروت في ١٩ تموز من السنة المذكورة ^٢

وبعد مفاوضات طويلة اتفقت الدول ايضاً على شكل
تدخلها ، وكان ذلك في جلسة عقدها مندوبوها في باريس

١ المحررات ج ٢ ص ١٦٨ . دي تستاعد ٣٧ ص ٨٣ - ٨٤ وعد
١٢ ص ١٠ وعد ٣٤ ص ٢٢
٢ المحررات ج ٢ ص ١٧٣ . الكتاب الازرق عد ٦٥ ملحق ٢ ص ٤٣
- ٤٤ ودي تستاعد ٤٤ ص ١٩٠

بتاريخ ٣ آب سنة ١٨٦٠ ذكروا في محضرها اتفاقهم : وأهم ما فيها أن فرنسا ترسل نصف الحملة العسكرية المتفق عليها وأن احتلال الجنود الاوربية لا يزيد على ستة اشهر .

وحتى لا تقوم رية في النفوس في مقاصد احدى الدول من التدخل في شؤون لبنان اعلن معتمدوها في الوقت ذاته « تجردهم عن كل غرض وصرحوا بصورة علنية قاطعة بأن الدول المتعاقدة لا ينوين ان يطمعن وان يطمعن ابداً في اثناء اجرائهن عهودهن الى الاستيلاء على بعض اراض او اكتساب نفوذ خاص »^١

وعلى هذا الاساس سافرت الحملة الافرنسية الى لبنان وقوامها الالاي الخامس بامرة الكولونيل كوبر والالاي الثالث عشر بامرة الكولونيل داريكو والسرية الاولى من فيلق الفرسان الاول بقيادة اليوز باشي ستوكلي وعلى هذه الحملة المركيز دي بوفور قائد عام فبلغت بيروت في ١٦ آب .^٢

١ المحررات ج ٢ ص ٢٤٢ ودي تستاعد ٤٢

٢ المحررات ج ٢ ص ٢٥١ وص ٢٨١

ولم تلبث ان تبعتها اللجنة الدولية فاجتمعت لأول مرة
في بيروت في ٥ ت ١ سنة ١٨٦٠ وهي مؤلفة من الميسر
وكبكر عن النمسا ، والميسر بكلا عن فرنسا ، واللورد
دوفرين عن بريطانيا العظمى ، والميسر ريفوس عن
بروسيا ، والميسر نوفيكوف عن روسيا ، وكان فؤاد باشا يمثل
الحكومة التركية^١

وفي تلك الاثناء اصدر فؤاد باشا امراً بتعيين يوسف
بك كرم قائماً على النصارى عوضاً عن الامير بشير
احمد اللامي^٢ تاريخه ١٢ ت ٢ سنة ١٨٦٠ ووجه اليه رتبة
قبوحي باشي^٣

وقد سار فؤاد باشا في لبنان على سياسة تخالف وعود
الباب العالي وتعهداته وتزيد في حرج الحال ، فهو بدلاً من

١ المحررات ج ٢ ص ٣٦٢

٢ المحررات ج ٣ عد ٢٤

ان يُنزل العقاب الصارم بعمال الدولة مشيري الفتن ومسببيها
ويعمل على تضييد جراح الاهالي ، أخذ يسعى الى تبرئة
ساحة اولئك العمال الجناة ويستفيض عنهم ببعض من
الاهالي فيصدر عليهم الاحكام الشديدة فيزيد بذلك تنافر
القلوب وحفيظة النفوس ، فاستنتج « المندوبون » من هذه
الاعمال ان في الامر خداعاً من الباب العالي فهو يعلن شيئاً
ويسر شيئاً آخر . وقد شهد بذلك اللورد دفرين في رسالة له
الى سفير انكلترا في الاستانة جاء فيها ما ترجمته : « ان لدي
من المعلومات ما يثبت ان الباب العالي يرسل الى قواد باشا
تعليمات تخالف الخطة التي كان تعهد باتباعها ، فان حكومة
الاستانة هي التي اوحى اليه تبرئة خورشيد باشا وسائر الأتراك
في مقابل قتل ٣٠ شيخاً من الدروز » .

اما اللجنة الدولية فقد عقدت جلساتها في بيروت من
٥ ت ١ سنة ١٨٦٠ الى ٥ ايار سنة ١٨٦١ ، فاضاعت معظم
تلك الجلسات في البحث في منشأ الفتن واسبابها وفي تقدير

الخسائر التي ألّت بالاهالي ، ولم تصل الى الغرض الجوهرى وهو سن نظام جديد للبنان يكفل له اعادة امارته المستقلة وتوحيد الحكومة وتوسيع الحدود الا وقد سمّ المقوضون الجدّل حتى اصبحوا وهم يتوقون الى الانتهاء على اي وجه كان ، لاسيما وجوّ السياسة آنثذ مكفهر متلبد فما يريدّه الواحد يأباه الآخر ، حتى أنتج سأمهم واختلاف نزعاتهم بضعة مواد سموها نظام لبنان الاساسي . وقد أرسلت هذه المواد الى الاستانة لعرضها على السفراء والباب العالي . . فشكّل السفراء ومفوض الباب العالي مجلساً لاعادة النظر في النظام مؤلفاً من عالي باشا عن تركيا ، والسر هنري بولفر عن انكلترا ، والمسيو لافالت عن فرنسا ، وبروكش اوستين عن النمسا ، وجولتز عن بروسيا ، ولوبانوف عن روسيا .

وبعد مباحثات طويلة ، عادت كل دولة الى الرأى الذي كانت دافعت عنه بواسطة مندوبيها في لجنة بيروت ، وتوفّقوا اخيراً الى الاتفاق على نظام لبنان الاساسي الاول

في ٩ حزيران سنة ١٨٦١ .

ولم يكد ذلك النظام يوضع موضع التنفيذ حتى ظهرت عيوبه وثبت نقصه مما اضطر الدول الى النظر فيه سنة ١٨٦٤ فكان من ثم نظام لبنان الاساسي الحالي وهو لا يفضل سابقه كثيراً ، الا انه اقل تعقيداً وأكثر مرونة : ساعد على الراحة في لبنان لكنه لم يتمكن من ترقية سياسياً واقتصادياً ولم يخف على اللبنانيين ما في ذلك النظام من النقص والحيف فاحتجوا عليه منذ اعلانه . ولئن قضت السياسة الدولية فيما مضى بعدم تلبية اللبنانيين الى كل مطالبهم فلا شك في ان مؤتمر الصلح يعيرهم التفاته وينفي عنهم ظلماً حملوه دهرًا طويلاً وهم صابرون عليه آملين ببارقة ما زالت تلمع امام عيونهم في الافق البعيد وهي تقترب منهم شيئاً فشيئاً حتى باتوا وهم يرونها اليوم في يد قادة العالم المتمدن مشعلًا وضاءً يطلمون به من قمة جبل العدل فينيرون ظلمات الشعوب الضعيفة ويحيون ميت آمال الامم المغلوبة على امرها ، فينال لبنان حقه من الاستقلال ثمنًا لدماء غزيرة أراقها اللبنانيون على

ممرّ الاجيال . وكأنّ ارواح اولئك الشهداء لا تزال ترف
في سماء ارزه الخالد تملأ الفضاء هيبةً واسراراً تهيب بابناء
اليوم ان يصونوا إرثاً مقدساً تركه الجدود وديعةً وامانةً بين
ايديهم فليس لهم ان يضيعوه في ساعة اضطراب عصبي بل
عليهم ان يحتفظوا به فيخلفوه للابناء والاحفاد : انما الاحتفاظ
بحق موجود أسهل وأسلم من السعي الى استرجاع ذلك
الحق بعد فقدانه ...

انتهى القسم الاول

